

نيرودا

تأليف :
البيرتو كوستي

ترجمة:
صالح علماني

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

مدخل

إن روبين داريو وبابلو نيرودا هما ، دون شك ، أكثر كاتبين تركا أثراً في الشعر الناطق بالاسبانية في هذا القرن . ولكن الشاعر التشيلي فاق النيكاراغوي فيما يتعلق بانتشار أعماله . ويمكننا التأكيد بأنه ـ منذ ثرفنتيس ـ لم يحرز شاعر ناطق بالاسبانية شعبية تضاهي شعبية نيرودا . فترجماته تعد بالمئات ـ بدءاً من اللغات الاوروبية كلها، وانتهاء بلغات لا يمكن تصورها كالأوزبكية ، والأوردية ، والبنغالية ـ، وطبعات كتبه تعد بالآلاف ، وعدد النسخ التي تحمل اسمه على غلافها ، في طول العالم وعرضه ، تعد بعشرات الملايين . وقد تلقى في حياته جميع الجوائز وكل التكريم الذي يصبو إليه كاتب ؛ حتى وصل إلى جائزة نوبل ـ منحت له عام ١٩٧١ ، وكان مرشحاً لها قبل ذلك بعشرين سنة ـ وكانت حياته محطاً لجوائز أخرى لا حصر لها ، ولدرجات دكتوراة فخرية من عدة جامعات اميركية

مدخل

إن روبين داريو وبابلو نيرودا هما ، دون شك ، أكثر كاتبين تركا أثراً في الشعر الناطق بالاسبانية في هذا القرن . ولكن الشاعر التشيلي فاق النيكاراغوي فيما يتعلق بانتشار أعماله . ويمكننا التأكيد بأنه ـ منذ ثرفنتيس ـ لم يحرز شاعر ناطق بالاسبانية شعبية تضاهي شعبية نيرودا . فترجماته تعد بالمئات ـ بدءاً من اللغات الاوروبية كلها، وانتهاء بلغات لا يمكن تصورها كالأوزبكية ، والأوردية ، والبنغالية ـ، وطبعات كتبه تعد بالآلاف ، وعدد النسخ التي تحمل اسمه على غلافها ، في طول العالم وعرضه ، تعد بعشرات الملايين . وقد تلقى في حياته جميع الجوائز وكل التكريم الذي يصبو إليه كاتب ؛ حتى وصل إلى جائزة نوبل ـ منحت له عام ١٩٧١ ، وكان مرشحاً لها قبل ذلك بعشرين سنة ـ وكانت حياته محطاً لجوائز أخرى لا حصر لها ، ولدرجات دكتوراة فخرية من عدة جامعات اميركية

واوروبية ، ولأوسمة وتشريفات اكاديمية ، ودعوات كضيف رسمي لعدد من رؤساء الدول ، وتكريم شعبي وصل إلى حد اندفاع الحشود لملء ملاعب رياضية رحبة من أجل شخصه فحسب .

اضافة إلى العوامل غير الشعرية التي ساهمت في شعبية نيرودا المذهلة ، ليس ثمة شك ـ لأن بؤس اعدائه فقط هو الذي يناقش امراً كهذا ـ بأنه يجب البحث عن السبب الأول والأخير لشعبيته في طبيعة شعره حتماً . وتبقى مهمة هذا الكتاب ـ بعد مراجعة سريعة لشاعرية نيرودا ومآثره الشخصية ـ محاولة لتحليل تلك الطبيعة العميقة ، والعناصر الاساسية التي حركها الشاعر للوصول إلى هذه الطبيعة ، والوصول في الوقت نفسه إلى هذا الجمهور العالمي الواسع المتحمس . ومن المناسب في هذا الموضع أن نعيد بعض الاعتبارات التي ذكرها السيد كارل هاغنار هيرو ، سكرتير الاكاديمية السويدية ، والتي اوافقه عليها وهي تتخذ نفس المنحى الذي تسير إليه نتائجي حول « ظاهرة نيرودا ». إذ قال بمناسبة منح جائزة نوبل للشاعر ، في استوكهولم :

لقد خُصصت جائزة نوبل هذا العام لكاتب مُتنازَع فيه ، لكاتب ليس مدروساً فحسب وإنما هو ما يزال موضع دراسة ومناقشة . لكن كون هذه المناقشة مستمرة طوال الاربعين سنة الماضية ، يؤكد أن مساهمته في حقل الأدب ليست موضع جدال .

وبعد أن يورد آراء غارسيا لوركا وخوان رامون خيمينيث حول نيرودا ، تلك الاحكام التي اصبحت كلاسيكية (إذ اعتبره الأول : الشاعر الأكثر قربا إلى الدم منه إلى الحبر . بينما وسمه خوان رامون

خيمينيث بأنه : أعظم شاعر سيّىء). يتابع هيرو :

السبب الذي جعل الابتكارات الشعرية النيرودية تلتصق بأسماعنا هو أن شيطان شعره جبار متسلط . لدرجة أن المرء يتساءل ما إذا وجدت ظاهرة كهذه في تاريخ الشعر . ففي الثالثة عشرة من عمره نشر أولى قصائده ، وفي العشرين ، كان قد أصبح شاعراً معروفاً . وفي عام ١٩٦٢ أصبح نتاجه الشعري يربو على ألفي صفحة ، وبعد سنتين من ذلك ـ عندما أتم الستين ـ نشر خمسة مجلدات شعرية أخرى بعنوان ذكريات ايسلا نغرا . ثم رأت النور كتب عديدة أخرى من تأليفه ، منها اعمال رائعة مثل : اغنية البحارة . امام هذا الموج الشعري المتلاطم ، فإن تقديماً قصيراً لن يفي بالغرض . إن الحديث في هذا العالم الشعري اللامحدود عن قصيدة واحدة أو عن كتاب واحد لهو أمر مضحك ؛ أو هو كمن يحاول أن يعيب سفينة تزن خمسين ألف طنٍ بملعقة صغيرة . والقول بأن هذا النتاج الأدبي العملاق يمتاز كله بنفس المستوى ، هو ببساطة قول غير معقول . ومن يرغب بالعثور على الجانب الضعيف في الشعر النيرودي ، فإنه لن يحتاج وقتاً طويلاً في البحث . أما من يريد العثور على الجانب القوي، فإنه لن يحتاج للبحث أبداً .

إذا ما أضفنا الكتب التي نشرها نيرودا قبيل موته ، والمجموعات الشعرية الثمان التي نشرت بعد موته ، ومذكراته ، ودفاتر النثر السبعة المتنوعة التي ظهرت منذ مدة قريبة تحت عنوان « للولادة وُلدتُ » ، فإن الصفحات الألفين التي ذكرها هيرو ، سيرتفع عددها إلى أكثر من خمسة آلاف ، مشكلة جسداً بيبلوغرافياً يبلغ أكثر من

خمسين عنواناً . ثمة أمر آخر ، أكثر أهمية ، لا بد من اضافته إلى هذه القدرة الخلاقة التي يعتبرها سكرتير جائزة نوبل قوة متسلطة ، ألا وهو تنوعه الذي لا يمكن تصوره ؛ فالمسيرة النيرودية سُبقت بمغامرة شعرية ، تبدلت مراراً وتكراراً وسارت جنباً إلى جنب مع استراتيجية لولبية .

إن موضعاً مشتركاً يقف عليه النقد النيرودي ، يستند على اتهام الشاعر بالرتابة ، وتكرار موضوعه واشكاله دون توقف . واعتقد بأن حججاً أخرى ـ كما سنرى في الخاتمة ـ تستطيع أن تقف في وجه تأليه شاعرية نيرودا ، ولكنها ليست هذه الحجج ، لأن نيرودا لم يسترح يوماً عن مناقشة أشكاله ومضامينه ؛ ومناهج عمله ، والهامه وشاعريته . وأملي أن يثبت هذا الكتاب الصغير ذلك .

عرض تاريخي

١٩٠٤ ـ يوم ١٢ تموز (يوليو)، يولد في بلدة برال (تشيلي) ريكاردو إليثار نيفتالي رييس باسوألتو ، وهذا هو الاسم واللقب الحقيقي لمن سيصبح بابلو نيرودا . ابواه هما : خوسيه دل كارمن رييس موراليس ، العامل في سكة الحديد ، وروسا باسو ألتو ، المعلمة في مدرسة الأطفال الثانية في برال . تتوفى والدته بالسل في الشهر التالي لولادة الشاعر ، وقبل أن يحتفل العروسان رييس ـ باسو ألتو بالذكرى السنوية الأولى لزفافهما ؛ إذ إنهما تزوجا في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٠٣ .

١٩٠٦ ـ ينتقل دون خوسيه دل كارمن إلى تيموكو ، التي كانت في ذلك الحين الطرف الجنوبي الاقصى للحضارة ، ويتزوج هناك من ترينيداد كانديا مارفيردي . وفي السنة التالية يأتون بنيرودا ـ ولم يكن

قد أتم ثلاث سنوات ـ ليعيش مع العروسين الجديدين .

١٩١٠ ـ يدخل نيرودا مدرسة الليسيه للذكور في تيموكو ، ويبقى إلى أن ينهي دراسته فيها عام ١٩٢٠ .

١٩١٧ ـ في ١٨ تموز (يوليو)، وبعد أيام من الثالثة عشرة من عمره ، ينشر أول عمل له ؛ وهو عبارة عن مقال بعنوان « **حماس ومثابرة** »، في جريدة « لامانيانا » الصادرة في البلدة التي يعيش فيها .

١٩١٨ ـ في العدد رقم ٥٦٦ من مجلة «**كورّي ـ بويلا**»، الصادرة في سنتياغو دي تشيلي، بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ينشر ولأول مرة قصيدة من نتاجه، بعنوان «**عيناي**»، ويوقعها باسم نيفتالي رييس . وقبل أن ينتهي العام تظهر له ثلاث قصائد أخرى في المجلة نفسها ، وكذلك بعض القصائد الأخرى في مجلات الطلبة الأدبية في تيموكو .

١٩١٩ ـ ينشر العديد من القصائد في مجلة « **كورّي ـ بويلا** »، وفي مجلة « **سيلفا اوسكورا** » الصادرة في تيموكو ، ثم في مجلات تصدر في مدينتي تشييان وبالديبيا ، مستخدماً عدداً من الأسماء المستعارة . يشارك في مسابقة مهرجان الزهور في « **ماولا** »، وينال الجائزة الثالثة عن قصيدته « ليليٌّ مثاليّ ».

١٩٢٠ ـ في تشرين الأول (اكتوبر) يتخذ بشكل نهائي الاسم المستعار بابلو نيرودا لينشر به ، وفي ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) يحصل على الجائزة الأولى في مهرجان الربيع في تيموكو . ويرأس

الجمعية الأدبية في البلدة التي يعيش فيها ، وينجز مجموعتين شعريتين هما : (**الجزر الغربية** ، **وأتعاب بلا طائل**) ولكنه لا ينشرهما ، ومع ذلك فإنه يضم بعض قصائدهما إلى ديوان « **غسقيات** » .

١٩٢١ ـ يسافر نيرودا إلى سنتياغو ، حيث يبدأ الدراسة في المعهد التربوي ليصبح استاذاً للغة الفرنسية . وفي ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) يفوز بالجائزة الأولى في المسابقة الأدبية التي ينظمها اتحاد طلبة تشيلي ، وذلك عن قصيدته « **أغنية العيد** » التي نشرتها ، فور فوزها ، مجلة « **خوبينتود** » .

١٩٢٢ ـ يساهم في مجلة « **كلاريداد** » ويشارك في المناقشات الشعرية التي تنظمها المجموعة الأدبية بريميا . يرد ذكره في العدد الخاص الذي كرسته مجلة **لوس تيمبوس** ، الصادرة في مونتفيديو ، للشعر التشيلي الشاب .

١٩٢٣ ـ يظهر الديوان الأول للشاعر « **غسقيات** » ، في شهر آب (اغسطس) عن دار النشر كلاريداد ، ويشارك نيرودا في مجلة الدار بغزارة على امتداد السنة ، موقعاً مقالاته النقدية بالاسم المستعار « **ساشكا** » .

١٩٢٤ ـ تصدر في شهر حزيران (يونيو) الطبعة الأولى من ديوانه « **عشرون قصيدة حب واغنية يائسة** » ، وهو أوسع اعمال نيرودا شهرة على المستوى العالمي .

١٩٢٥ ـ يرأس تحرير مجلة « **كابايّو دي باستوس** » ، ويساهم في عدة دوريات . تصدر الطبعة الأولى من « **محاولة الانسان**

اللانهائي »، ويكتب في الوقت ذاته « **المقيم وأمله** ». يسافر إلى انكود ويزور تيموكو، حيث ما زالت تقيم عائلته . وفي سنتياغو يعيش متنقلاً في فنادق أو متقاسماً غرف السكن مع اصدقائه .

١٩٢٦ ـ تصدر الطبعة الأولى من « **خواتم** » و« **المقيم وأمله** ». ثم يصدر النص النهائي من « **غسقيات** » في طبعة ثانية مهداة إلى خوان غاندولفو. يترجم ريلكه ، ويتابع نشر قصائده في المجلات الأدبية .

١٩٢٧ ـ يعين قنصلاً فخرياً في رانغون (بيرمانيا)، ويسافر إليها يوم ١٤ تموز (يوليو) عن طريق بوينس ايرس . ومن العاصمة الارجنتينية يستقل السفينة بادن متوجهاً إلى لشبونة . وبعد شهر من ذلك يصل إلى مدريد ، ومنها يتوجه إلى باريس ثم مرسيليا قبل أن يتابع رحلته إلى الشرق: إنها المرة الأولى التي يغادر بها تشيلي . يعمل مراسلاً لجريدة « **لاناثيون** » الصادرة في سنتياغو ، والتي تنشر تقاريره بانتظام . يتعرف في بيرمانيا إلى خوسيه بليس ، ويعيش معها .

١٩٢٨ ـ يعين قنصلاً في كولومبو (عاصمة سيريلانكا ، والمعروفة في ذلك الحين باسم سيلان). تلحق به خوسيه بلّيس إلى هناك ، ولكن العلاقة بينهما تأخذ بالاضطراب ، ثم يفترقان نهائياً بعد وقت قصير .

١٩٢٩ ـ يحضر مؤتمر انصار الهندوس في كلكوتا .

١٩٣٠ ـ يعين قنصلاً في باتافيا (جاوا). ينشر ثلاثاً من قصائده في مجلة « **ريفيستا دي أوكثيدينتي** » المدريدية . وفي السادس من شهر

كانون الأول (ديسمبر) يتزوج من ماريا انطونيتا هاخينار بوخيلثانت .

١٩٣١ ـ يعين قنصلاً في سنغافورة .

١٩٣٢ ـ يرجع إلى تشيلي بعد غياب دام خمس سنوات تقريباً . وفي شهر تموز (يوليو) تظهر الطبعة الثانية من « **عشرون قصيدة حب واغنية يائسة** » في نصها النهائي .

١٩٣٣ ـ يصدر ديوان « **رامي المقلاع المتحمس** » وكذلك طبعة جديدة ، في الارجنتين هذه المرة ، من « **عشرون قصيدة . . .** » . ثم طبعة من كتاب « **اقامة في الأرض** » باخراج فاخر ونسخ محدودة بلغ عددها مئة نسخة فقط ، وتضم هذه المجموعة قصائد كتبت ما بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣١ . في ٢٨ آب (أغسطس) يسافر إلى بوينس ايرس ، حيث عيّن قنصلاً . وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) يتعرّف في بيت بابلو روخاس باث على فيدريكو غارسيا لوركا .

١٩٣٤ ـ يسافر في شهر أيار (مايو) إلى برشلونة كقنصل لبلاده . وفي يوم ٤ تشرين الأول (اكتوبر) تولد في مدريد مالفامارينا ، وهي ابنته الوحيدة . وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) يقدمه غارسيا لوركا في جامعة مدريد . ويتعرف في هذه الفترة أيضاً على ديليا دل كاريل في بيت مورلا لينتش .

١٩٣٥ ـ في شهر شباط (فبراير) يتم نقله إلى القنصلية التشيلية في مدريد ، حيث يمارس في هذه المدينة حياة ادبية نشيطة . وفي شهر نيسان (ابريل) ينشر الشعراء الاسبان وثيقة بعنوان **تحية إلى بابلو**

نيرودا ، وفي ايلول (سبتمبر) تظهر الطبعة الواسعة من ديوان « **اقامة في الأرض** ». ومنذ شهر تشرين الأول (اكتوبر) يصدر العدد الأول من مجلة « **الحصان الأخضر للشعر** »، المجلة التي أسسها ورأس تحريرها نيرودا .

١٩٣٦ ـ تنشب الحرب الأهلية الأسبانية ، ويتم اغتيال فيدريكو غارسيا لوركا . يتخذ نيرودا موقفاً حاسماً إلى جانب الجمهورية ، ويبدأ بكتابة قصائد ديوانه « **اسبانيا في القلب** ». يقال من منصبه الدبلوماسي . يسافر إلى فلنسيه ثم إلى باريس ، حيث يصدر ويرأس تحرير مجلة « **شعراء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني** » بمشاركة نانسي كونارد . ينفصل عن زوجته ماريا انطونيتا هاخينار .

١٩٣٧ ـ يؤسس ، هو وثيسر باييخو، في باريس **المجموعة الاسبانو ـ اميركية لمساعدة اسبانيا** . وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) يعود إلى تشيلي ، حيث ينشر « **اسبانيا في القلب** » ويرأس **تحالف المثقفين للدفاع عن الثقافة** .

١٩٣٨ ـ تتوالى طبعات « **اسبانيا في القلب** »، ويعاد طبع جميع اعماله تقريباً في سنتياغو وبوينس ايرس . يوم ٧ أيار (مايو)، يتوفى والده في تيموكو ، وفي ١٨ آب (اغسطس) تتوفى زوجة والده . تصدر في باريس ترجمة « **اسبانيا في القلب** » مع مقدمة بقلم لويس اراغون ، ثم تظهر بعد ذلك بقليل الطبعة الاسبانية التي نشرها مانويل التولاغييري في جبهة القتال . يفوز مرشح الجبهة الشعبية بيدرو اغييري ثيردا في انتخابات الرئاسة التشيلية التي جرت في شهر تشرين الأول (اكتوبر). ويجول نيرودا في طول البلاد وعرضها

محاضراً .

١٩٣٩ ـ تعينه حكومة الجبهة الشعبية قنصلاً مفوضاً بشؤون الهجرة الاسبانية ، ويكون مقره في باريس . وبعد شهور من الجهود المكثفة يتمكن نيرودا من جمع عدد كبير من اللاجئين الاسبان من انحاء اوروبا ويرسلهم إلى تشيلي . يصدر له ديوان « **الغضبات والمشقات** »، ثم الترجمة الروسية لديوان « **اسبانيا في القلب** ».

١٩٤٠ ـ يعود إلى وطنه في مطلع العام ، ويتابع العمل في « **النشيد الشامل لتشيلي** »، الكتاب الذي سيتوسع بعد عشر سنوات من العمل ليشمل اميركا بأسرها ويتحول إلى « **النشيد الشامل** ». في شهر آب (اغسطس) يسافر إلى المكسيك ، حيث مقر قنصليته الجديدة .

١٩٤١ ـ يقوم برحلة إلى غواتيمالا . وبعد عودته يمنح درجة دكتوراه فخرية من جامعة ميتسواكان . في كانون الأول (ديسمبر)، وخلال زيارته لمدينة « كويرنا باكا » يتعرض لاعتداء من جانب جماعة نازية ، وكرد على هذا الاعتداء يتلقى رسائل التأييد من مئات المثقفين في جميع ارجاء اميركا .

١٩٤٢ ـ يقوم برحلة إلى كوبا . ينشر القصائد الأولى من « **النشيد الشامل** ». وتتوفى ابنته مالفامارينا في أوروبا .

١٩٤٣ ـ تتولى طباعة الاعمال النيرودية في مكسيكو ، وليما ، وبوغوتا ، وسنتياغو . توجه إليه دعوة من صوت الاميركيتين لزيارة نيويورك . في ٢٧ آب (اغسطس) ينهي مهمته الدبلوماسية في

المكسيك ، ويقام احتفال لوداعه يحضره ألفا شخص . يعود إلى تشيلي في رحلة طويلة تتخللها عدة محطات : بنما ، كولومبيا ، والبيرو حيث استقبل بحفاوة ، وزار في هذا البلد الأخير أطلال مدينة ماتشو ـ بيتشو ، وهي زيارة هامة تمخضت عنها إحدى قمم « النشيد الشامل » . يصل إلى سنتياغو يوم الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) . يلقي عدداً من المحاضرات .

١٩٤٤ ـ ينال الجائزة البلدية للشعر . وتصدر طبعات جديدة من اعماله في نيويورك وبوينس ايرس .

١٩٤٥ ـ في ٤ آذار (مارس) يتم انتخابه كعضو في مجلس الشيوخ عن منطقتي تاراباكا وانتوفاغاستا . يمنح الجائزة الوطنية للآداب في وطنه . في ٨ تموز (يوليو) ينخرط في صفوف الحزب الشيوعي التشيلي . وفي النصف الأخير من هذا العام يزور ، وسط مظاهر الحفاوة ، كلاً من البرازيل والأرجنتين والأورغواي . وفي أيلول (سبتمبر) يكتب قصيدته الرائعة « **مرتفعات ما تشو بيتشو** » .

١٩٤٦ ـ تقلده الحكومة المكسيكية وساماً . ويعين مديراً وطنياً للدعاية في الحملة الانتخابية التي يخوضها غابرييل غونثالث فيديلا مرشحاً لرئاسة تشيلي . تطبع بعض اعماله في تشيكوسلوفاكيا ، والدانمارك ، والولايات المتحدة ، والبرازيل . في فصل الربيع الجنوبي (الخريف الاوروبي) يتعرف على ماتيلدي اوروتيا . وفي ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) يحصل على قرار قانوني ينص بأن اسمه الشرعي هو بابلو نيرودا .

١٩٤٧ ـ يصدر ديوانه « الاقامة الثالثة ». تجمع اشعاره كاملة لأول مرة ، وتنشر في تشيلي تحت عنوان « الاقامة في الأرض ». وفي ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ينشر في كاراكاس ـ بعد أن منعته الرقابة في تشيلي ـ نصاً بعنوان « رسالة خاصة إلى ملايين البشر »، وبسبب ذلك يبدأ الرئيس غونثالث فيديلا بمحاكمته سياسياً .

١٩٤٨ ـ في السادس من كانون الثاني (يناير) يلقي نيرودا في مجلس الشيوخ خطاباً شهيراً ينشر فيما بعد تحت عنوان « اني اتهم ». وفي ٣ شباط (فبراير) يقر المجلس الأعلى تجريده من حصانته البرلمانية ، وبعد يومين من ذلك تصدر المحاكم القضائية امراً باعتقاله . ينتقل إلى السرية ، ويكتب في هذه الأثناء « النشيد الشامل »، ويشارك بنشاط في الجهد السياسي للمعارضة . تقام في العديد من بلدان العالم مهرجانات تضامن مع الشاعر ، وتكرس له بعض المجلات اعداداً خاصة : فمجلة ادام مثلاً ـ وهي مجلة ادبية عالمية تصدر في لندن ـ تكرس عدداً خاصاً وشاملاً حول نيرودا واعماله .

١٩٤٩ ـ في اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) يتمكن من مغادرة تشيلي ، وذلك باجتياز سلسلة جبال الانديز من منطقتها الجنوبية . وبعد شهرين يحضر المؤتمر العالمي الأول لأنصار السلام ، ويعين عضواً في مجلس السلم العالمي : وكان هذا هو أول ظهور علني له بعد خمسة عشر شهراً من الحياة السرية . في حزيران (يونيو) يسافر إلى الاتحاد السوفيتي ، ويزور بولونيا وهنغاريا في الشهر التالي . وفي شهر آب (أغسطس) يذهب إلى المكسيك برفقة

الشاعر بول ايلوار ، للمشاركة في اعمال المؤتمر الاميركي ـ اللاتيني لأنصار السلام الذي عقد هناك . يضطره المرض للبقاء في المكسيك حتى نهاية العام ، فيلتقي من جديد بماتيلدي اوروتيا . ينشر كتاب **الوطن العذب**، كما يرى النور عدد من كتبه أو مختارات من اشعاره صدرت في ألمانيا ، تشيكوسلوفاكيا ، الصين ، الدانمارك ، هنغاريا ، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفيتي ، المكسيك ، كوبا ، كولومبيا ، غواتيمالا ، والارجنتين .

١٩٥٠ ـ يصدر « **النشيد الشامل** » في المكسيك بطبعتين في الوقت نفسه (كما تصدر في تشيلي طبعتان اخرتان ، كلتاهما في ظروف السرية). يسافر إلى غواتيمالا ، وبراغ، وباريس ، وروما ، ونيودلهي ، ويُستقبل بالحفاوة من جانب السلطات ومن جانب الجمهور أينما حلّ . تترجم قصائده إلى الهندوسية والأوردية والبنغالية . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) يحضر المؤتمر العالمي الثاني لانصار السلام ، الذي عقد في صوفيا ، ترافقه ماتيلدي اوروتيا . ولدى انتهاء أعمال المؤتمر ، يتلقى مع بيكاسو وفنانين اخرين الجائزة الدولية للسلام عن قصيدته « **فليستيقظ الحطاب** ». ويدعوه اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكيين لقضاء فترة استجمام في قلعة دوبريس . تصدر طبعات جديدة من **نشيده الشامل** في المكسيك ، وتشيلي ، والولايات المتحدة ، والصين، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولونيا ، والسويد ، ورومانيا ، والهند ، والاتحاد السوفيتي، والطبعة التي صدرت في هذا البلد الأخير مؤلفة من ربع مليون نسخة .

١٩٥١ ـ عام أسفار متواصلة . يبدأها بجولة في ايطاليا ، حيث

يلقي بعض اشعاره في فلورنسة ، وتورين ، وجنوة ، وروما ، وميلانو . وفي شهر آذار (مارس) يذهب إلى باريس ؛ وفي أيار (مايو) إلى موسكو وبراغ ، وفي آب (اغسطس) إلى برلين ، إلى مهرجان كارلوفيفاري السينمائي ومهرجان مورافيا للفن الشعبي . بعد ذلك يركب القطار السيبيري الأسطوري ، ويزور جمهورية منغوليا الشعبية ، ومن هناك يجتاز الحدود إلى بكين . وفي هذا العام أيضاً أصبح أوسع الشعراء الناطقين بالاسبانية شهرة عالمية في كل العصور . فاضافة إلى الترجمات التي اصبحت متداولة في انحاء العالم ، ظهرت ترجمات أخرى من اشعاره إلى البلغارية ، والهنغارية ، والايسلندية ، والايديشية ، والعبرية ، والكورية ، والفيتنامية ، واليابانية ، والعربية ، والتركية ، والاوكرانية ، والاوزبكية ، والبرتغالية ، والسلوفاكية ، والجيورجانية ، والأرمنية .

١٩٥٢ ـ يقيم في ايطاليا ، وتسافر زوجته ديليا دل كاريل إلى تشيلي . وفي شهر شباط (فبراير) يبدأ بكتابة ديوان « **الكرمة والريح** » في كابري . تصدر طبعة خاصة ودون ذكر اسم المؤلف من ديوانه **أشعار القبطان** . يسافر إلى برلين والدنيمارك ، حيث يفاجأ بالغاء أمر الاعتقال الصادر ضده منذ ثلاث سنوات ، فيعود إلى سنتياغو في الثاني عشر من آب (اغسطس)، وتقام مهرجانات تكريم واسعة احتفاء به . يستقر للاقامة في بيته في شارع لينتش ، ويقوم خلال الشهور التالية بجولة إلى تيموكو ومناطق أخرى في تشيلي . في شهر كانون الأول (ديسمبر) يعين عضواً في لجنة

التحكيم لجائزة السلام العالمية في موسكو . يبدأ بكتابة ديوان **الأغاني البدائية** ، وبتعمير داره التي اسماها **لاتشاسكونا** .

١٩٥٣ ـ يقوم بتنظيم **المؤتمر القاري للثقافة** الذي عقد في سنتياغو ، في شهر نيسان (ابريل). وفي ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) يمنح جائزة ستالين للسلام (التي أصبحت تعرف فيها بعد بجائزة لينين).

١٩٥٤ ـ ينشر ديوانيه : **أغان بدائية و الكرمة والريح** . تقام احتفالات بالعيد الخمسين لميلاده وسط تكريم عالمي ، وتحضر إلى سنتياغو شخصيات من العالم كله للاحتفال بالمناسبة . يهدي مكتبته الخاصة وثروات أخر إلى جامعة تشيلي ، وتقرر هذه بدورها تمويل مؤسسة نيرودا لتطوير الشعر . يتوالى نشر طبعات وترجمات جديدة من اشعاره في بلدان عديدة .

١٩٥٥ ـ ينفصل عن زوجته ديليا دل كاريل . ينتهي من بناء بيته المسمى لاتشاسكونا ، وينتقل ليعيش فيه مع ماتيلدي اوروتيا . تظهر في هذا العام ترجمات جديدة بالألمانية ، والايطالية ، والرومانية ، والعربية ، والفارسية . يسافر إلى الاتحاد السوفيتي والصين ، وإلى بلدان اشتراكية أخرى . وعند عودته إلى اميركا يلقي محاضرات واشعاراً في البرازيل والاروغواي ، ويمضي اجازة لبعض الوقت في توتورال ، التابعة لولاية قرطبة الارجنتينية .

١٩٥٦ ـ ينشر ديوان « **أغان بدائية جديدة** »

١٩٥٧ ـ تنشر دار النشر لوسادا ، في بوينس ايرس ، الطبعة الأولى من « **اعماله الكاملة** ». يبدأ بكتابة « **مائة قصيدة حب** ».

يسافر في نيسان إلى بوينس ايرس ، حيث تعتقله الشرطة ويمضي يوماً ونصف اليوم في السجن الوطني ، ثم يغادر الارجنتين دون أن يقيم الاماسي التي كان مقرراً اقامتها ، ويبدأ برحلة إلى الأماكن التي عرفها في شبابه : رانغون ، كولومبو ومدن أخرى في الشرق . ولدى عودته ، يعين رئيساً لجمعية الكتّاب في تشيلي . وينشر ديوانه « **الكتاب الثالث للأغاني** ».

١٩٥٨ ـ عام انتخابات رئاسية في تشيلي ، وعام نشاطات سياسية كبيرة بالنسبة لنيرودا . ينشر ديوانه : « **شاذ** ».

١٩٥٩ ـ يسافر عبر فنزويلا وسط الحفاوة والتكريم طوال خمسة شهور . وفي السفارة الكوبية في كاراكاس يتعرف على فيدل كاسترو . ينشر كتابيه : « **ابحارات وعودات** »، و « **مائة قصيدة حب** ».

١٩٦٠ ـ يسافر إلى اوروبا في شهر نيسان (ابريل)، وينهي كتابه المهدى إلى كوبا « **اغنية مفخرة** » وهو على متن السفينة لويس لومبيه . يتجول في الاتحاد السوفييتي ، وبولونيا ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويقيم بقية العام في باريس . يجتاز الحدود إلى ايطاليا ومن هناك يستقل الباخرة إلى هافانا . وهناك ينشر « **أغنية مفخرة** ».

١٩٦١ ـ ينشر « **أحجار تشيلي** » و « **أغان احتفالية** »، كما تُطبع النسخة المليون من كتابه « **عشرون قصيدة حب واغنية يائسة** ». وتظهر طبعات جديدة لكتبه في فرنسا والولايات المتحدة .

١٩٦٢ - عضو اكاديمي في كلية الفلسفة والتربية في جامعة تشيلي . ينشر ديوانه « **صلاحيات كاملة** ». يسافر إلى ايطاليا ، وفرنسا وبلغاريا ، والاتحاد السوفييتي .

١٩٦٣ - يظهر في مجلة Bormiers Litterata Magasia ، الصادرة في استوكهولم ، مقال مطول حول نيرودا ، كتبه ارثر ليندكفيست ، وهو عضو مؤثر في الاكاديمية السويدية ، ويُفَسَّر الأمر على أنه تأكيد للاشاعات الكثيرة القائلة أن جائزة نوبل ستمنح للشاعر .

١٩٦٤ - ينشر ديوان « **ذكريات ايسلا نغرا** »، وترجمته لمسرحية شكسبير **روميو وجوليت** ، التي عرضت في سنتياغو في العام نفسه . تنظم المكتبة الوطنية التشيلية ندوة حول الأعمال النيرودية ، بمناسبة الذكرى الستين لميلاد الشاعر . يشارك في الحملة لانتخابات الرئاسة .

١٩٦٥ - في شهر شباط (فبراير) يسافر إلى اوروبا ، حيث يبقى طوال العام . وفي حزيران يمنح درجة دكتوراة فخرية في الفلسفة والآداب من جامعة اكسفورد ، وهي درجة تمنح للمرة الأولى إلى اميركي جنوبي . يمضي فترات في باريس وبودابيست ، ويكتب في هذه المدينة الأخيرة : **ونحن نأكل في هنغاريا** - كتاب مشترك مع ميغيل انخل استورياس - وقد نُشر الكتاب بخمس لغات في وقت واحد . يحضر اجتماع نادي القلم في « بليد » بيوغسلافيا ، ومؤتمر السلام في هيلسينكي (فنلندا). ثم يذهب إلى الاتحاد السوفييتي كحكم لجائزة لينين ، ويعود إلى تشيلي في كانون الأول (ديسمبر) .

١٩٦٦ ـ يسافر إلى الولايات المتحدة كضيف شرف على اجتماع لنادي القلم . ويلقي اشعاره في نيويورك ، وبيركلي ، وواشنطن . كما يلقي قصائده في المكسيك والبيرو ، ويقلده هذا البلد الأخير وسام (اوردن دل سول) . وفي ٢٨ تشرين الأول (اكتوبر) تصدر في تشيلي الموافقة القانونية على زواجه من ماتيلدي اوروتيا ، وكانا قد عقدا زواجهما في الخارج . ينشر كتاب « **فن العصافير** ». يتلقى جائزة (اتينيا ـ Atenea)، من جامعة كونثيبثيون ، عن مجمل اعماله .

١٩٦٧ ـ يمنح جائزة فيارجيو العالمية في ايطاليا . ينشر ديوانه « **اغنية البحارة** »، ومسرحيته « **تألق وموت خواكين موريينا** » وهي مسرحيته الأولى والوحيدة ، وفي هذه السنة أيضاً تُمثل المسرحية في سنتياغو . تصدر طبعة جديدة ومزيدة من **اعماله الكاملة** .

١٩٦٨ ـ ينشر ديوان « **أيادي النهار** ». يتلقى وسام جوليوكوري ، ويختار عضو شرف في الاكاديمية الأميركية الشمالية للفنون والآداب، وفي الجمعية الوطنية للفنون والآداب . يسافر إلى الاروغواي ، والبرازيل ، وكولومبيا ، وفنزويلا . ويبدأ بكتابة عمود خاص في مجلة إريثيا ، **التي تصدر في سنتياغو** .

١٩٦٩ ـ ينشر أربعة كتب جديدة هي : « **نهاية العالم** » ، و « **مازال** »، و « **مختصر** » و « **كأس الدم** ». يختار عضواً في الاكاديمية التشيلية للغة ، ويمنح لقب دكتور شرف من الجامعة الكاثوليكية في تشيلي ؛ كما يمنحه مجلس الشيوخ التشيلي الميدالية الفضية التي تمنح لابناء الوطن اللامعين . في ٣٠ ايلول (سبتمبر)،

يرشحه الحزب الشيوعي التشيلي لرئاسة الجمهورية .

١٩٧٠ - يسحب ترشيحه للرئاسة لصالح الدكتور سلفادور الليندي ، المرشح المشترك للاحزاب الشعبية . يسافر إلى اوروبا لمشاهدة افتتاح عرض مسرحيته « **تألق وموت خواكين موريتا** » في مسرح بيكولو تيتارو بمدينة ميلانو ، ويدعى لالقاء قصائده في السوربون بباريس . ينشر كتابيّ « **السيف المتقد** » و « **أحجار السماء** » .

١٩٧١ - تنتج القناة ١٣ في التلفزيون التشيلي فلماً بعنوان : « **تاريخ وجغرافية بابلو نيرودا** ». وفي ١٢ كانون الثاني (يناير) يوافق مجلس الشيوخ التشيلي على تعيينه سفيراً للبلاد في فرنسا ، ويشغل هذا المنصب اعتباراً من شهر آذار (مارس). في ١٢ تشرين الأول (أوكتوبر) يمنح جائزة نوبل للآداب . يسافر إلى استوكهولم لاستلام الجائزة ، ومن هناك يذهب إلى بولونيا لحضور افتتاح مسرحيته « **خواكين موريتا** ».

١٩٧٢ - ينشر ديوان جغرافية باطلة . وفي تشرين الأول (اكتوبر) يعين عضواً في المجلس الاستشاري لليونسكو لمدة أربع سنوات . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) يعود إلى وطنه حيث يتلقاه الشعب التشيلي بالتكريم والحفاوة في حفل حاشد في الاستاد الوطني .

١٩٧٣ - في ٥ شباط (فبراير) يستقيل من سفارته في باريس ، لأسباب صحية ، ويقيم في بيته في ايسلا نغرا . يظهر ديوانه

« **تحريض ضد النيكسونية واشادة بالثورة التشيلية** »، وهو الكتاب الأخير الذي يُنشر في حياته . يوجه نداء إلى المثقفين الاميركيين ، ينبههم فيه إلى الوضع التشيلي ، الذي يعتبره « فيتنام صامتة ». في ١١ أيلول (سبتمبر) يقع ، فعلاً ، الانقلاب العسكري الذي قضى على الحكومة وعلى حياة سلفادور الليندي . وبعد أيام قليلة يموت نيرودا ، ليلة ٢٣ أيلول (سبتمبر)، ضحية سكتة قلبية .

كأس الدم (١٩٠٤ - ١٩٢٠)

« هناك في الضوء الذاهل ،
حُسِم تحالفي
مع الأرض » .

وُلد ريكاردو إليثار نيفتالي رييس باسو ألتو - الخالد باسم بابلو نيرودا - يوم ١٢ تموز (يوليو) ١٩٠٤ في « برال »، وهي بلدة كروم وأعناب تابعة لمقاطعة « ليناريس »، في وسط الأراضي التشيلية المعذبة العجيبة . ولكن « برال » لن تكون المشهد الذي سيتذكره الشاعر ويستحضره ، ولا البلدة الأساسية التي سيسميها بألف طريقة طوال نصف القرن الذي مارس خلاله كتابة الشعر . فقد اخذوه وهو في الثالثة من عمره إلى بلدة « تيموكو »، « حيث يوُلد المطر »، والحدّ الجنوبي للحضارة في ذلك الحين ؛ فإلى الجنوب منها لا يخاطر بالذهاب سوى المتبقين على قيد الحياة من الهنود الاروكانيين الصبورين الصامتين ، إن تيموكو ، المحاطة دائماً بوابل السموات الجنوبية ، في المنطقة التي تضيق فيها تشيلي حتى لتكاد تختنق ما بين سلسلة جبال الانديز والمحيط ؛ هي محطة للسكة الحديد ، ومخازن

للخردوات المتنوعة ، وبعض المصالح القليلة الأخرى ، وبضعة مئات من البيوت الخشبية ، ذات أرضيات فسيحة وجوانب قائمة ، وعبر باحات هذه البيوت المتصلة ببعضها تقريباً ، كانت العائلات « تتبادل الادوات أو الكتب أو حلويات أعياد الميلاد ، أو المراهم للدلك ، أو المظلات أو الطاولات والكراسي ». تلك البيوت التقليدية ، التي بها « شيء من المعسكرات »، حيث « تبدو لدى دخولها براميل ، وأدوات عدة ، وأسرجة خيول ، وأشياء أخرى يقصر عنها الوصف »، كانت ترسم بشكل معجزيّ قرية (وقد توسعت تلك القرية حتى أصبحت في الوقت الحاضر مدينة تضم مائة وعشرين ألفاً من السكان) مفتوحة مثل ثغرة وسط صمت وخضرة الغابات الجنوبية الكثيفة . إلى هذه الغابات ـ التي تعتبر من أكثف غابات الدنيا ، بأشجارها العملاقة المتشعبة وبأحراجها الممتلئة باخضرار الرطوبة الدائمة ـ يجب الذهاب للبحث عن أعمق مفاتيح رموز الشاعرية النيرودية : النَفَس الكوني لأشعاره ، والطاقة الروحية التي تسنده .

في كأس الدم ـ وهو نص كُتب في بداية الأربعينات ، وتأخر نشره مستقلاً ربع قرن من الزمان ـ ذكر نيرودا للمرة الأولى هذه الغابة البدائية الغارقة بالماء (غابة الوحدانية الأسطورية ، الجبل السحري ، والمكان المشيمي الذي يختصر الكون) والتي ستصبح أكثر جلاء في أفضل كتب سنواته الأخيرة .

عندما كنت ارجع مشوشاً في رحلات القطارات العجيبة ، كما كان يرجع الاسلاف على صهوات جيادهم ، ابقى ساهماً

ومتفكراً في خصوصياتي فحسب : فأنا انتمي إلى جزء من أرض الجنوب البائسة قريباً من اروكانيا ، وقد كان تحركي منذ أبعد الساعات ، محكوماً بأن تلك الأرض الغابيّة والغارقة دوماً بالأمطار تمتلك من اسراري سراً لا أعرفه ، وإن عليّ أن أتوصل لمعرفته ، فأبحث ، تائهاً ، فاقداً صوابي ، واتفحص الانهار الطويلة ، والنباتات التي لا يمكن تصورها ، وأكوام الخشب ، وبحار الجنوب ، مغرقاً نفسي في علم النبات وفي المطر ، دون أن أصل إلى هذا الامتياز الزبدي الذي ترسيه الأمواج وتحطمه ، دون أن أصل إلى هذا المتر الأرضي الخاص ، دون أن ألمس رمالي الحقيقية . عندئذ، وبينما القطار الليلي يجتاز صاخباً المحطات الخشبية والفحمية وكأنه يصطدم وسط بحر الليل بصخور مختفية تحت الماء ، أشعر باني أتضاءل وأصبح تلميذاً ، أصبح طفلاً في برد المنطقة الجنوبيـة ، مدرستي في ملامح الشعب ، وأمام قلبي غابات نهاية العالم الرحيبة الرطبة .

والماء ـ الذي لولا وجوده الدائم لما كان بالإمكان تصور الغابة الجنوبية ـ يظهر أيضاً في النص وكأنه يقيم صلة ما بين الشاعر وأكثر منابع الشعر سرّية . فعندما كان على نيرودا اخراج جثة أبيه ، بعد أسابيع من موته ، ليدفنها في مكان آخر . كانت رطوبة المنطقة قد شققت التابوت خلال هذا الزمن القصير ، و:

«رأينا كميات كبيرة من الماء تنز منه ، كميات وكأنها ليترات لا تنتهي تسيل من جوفه ؛ من جوهره .

لكن ثمة تفسيراً لكل هذا ؛ فهذه المياه التراجيدية كانت امطاراً ، ربما هي أمطار يوم واحد فقط ، أو ربما هي أمطار ساعة واحدة من مطر شتائنا الجنوبي ، وقد اخترق هذا المطر السقوف والحواجز والطُوب ومواد أخرى وموتى آخرين حتى وصل إلى قبر قريبي . حسناً ، إن هذه المياه الرهيبة ، هذه المياه الخارجة من مخبأ مستحيل ، مخبأ لا يُدْرَك ، مخبأ بعيد الغور لتُظهر لي سرها الأرضي ، هذه المياه الأصيلة والمخيفة نبهتني مرة أخرى بانسكابها السحري إلى علاقتي المتواصلة بحياة محددة وبمنطقة وميتة محددتين » .

وكأبيه (« لقد توفي والدي في تيموكو ، لأنه كان رجلاً من اجواء أخرى . وهو مدفون هناك ، في واحدة من أكثر مقابر الدنيا امطاراً ») كان نيرودا أيضاً مُنْتَزعاً من أودية النبيذ والشمس المشرقة إلى الأرض الظُليلة الدائمة الرطوبة : وبها سيترعرع ـ هشاً وخجولاً ، صامتاً ومتوحداً ـ متأثراً حتى الأعماق بالاستعراض المهيب الذي يتطور أمام حواسه . ليس الشاعر فحسب ، وإنما أيضاً عالم الرخويات الذي سيصيره نيرودا ـ إذ أصبح يملك مجموعة من أهم مجموعات القواقع في العالم ـ، ومشيد البيوت الذي لا يكلّ ـ من البيوت التي بناها : ايسلا بغرا ، لاتشاسكونا ، لاسيباستيانا ـ، ومبررات أخرى كثيرة كانت تدفع الرحالة الشارد والمذهول للعمل من أجل اعادة خلق العالم دونما كلل . إن هذه الشخصيات المتعددة لنيرودا تتحد جميعها في المنهل المشترك لطفل تيموكو ، الذي أحب الحشرات ، والعصافير ، والثمار ، والذي كان قليل المودة تجاه

الانضباط ، ولاعب كرة القدم السيّىء. ولكنه أيضاً : القارىء النهم ، والشاعر المبكر دون جمهور مستمعين في ذلك الحين .

«أصعد إلى غرفتي في الأعلى . واروح أقرأ لـSalgari. ينهمر المطر كشلالات . وفي لحظة يلف الليل والمطر العالم . وهناك أكون وحيداً ، أكتب على دفتر الحساب ابياتاً من الشعر» .

أي عام تستحضر هذه الكلمات ؟ . تقول مرغريتا اغييري ، إن نيرودا كان يكتب الشعر قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره ، مستندة بذلك على بطاقة بريدية مؤرخة في ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩١٥ ، يهدي بها قصيدة إلى زوجة أبيه (أو « أمي » كما اعتاد أن يسميها دائماً) ، وتحتفظ بهذه البطاقة لاورا رييس ، شقيقة الشاعر ، في ارشيفها الخاص . ويبدو أن الحادثة التي يتذكرها نيرودا ، والتي تركها مكتوبة تعود إلى ما قبل تلك السن .

في طفولتي المبكرة ، وكنت حينها قد بدأت تعلم الكتابة ، شعرت ذات مرة بانفعال غامر فسطرّت بضع كلمات شبه مقفاة ، ولكنها كانت غريبة عليّ ، فهي مختلفة عن الحديث اليومي . أعدت نسخها على ورقة نظيفة وأنا أسير قلق عميق ، وشعور كنت اجهله حتى ذلك الحين ، نوع من الكآبة والأسى . كانت قصيدة موجهة إلى أمي ، أعني ، إلى المرأة التي عرفتها كأم لي ، إلى زوجة أبي الملائكية التي حمى ظلها الرقيق طفولتي كلها . كنت عاجزاً تماماً عن تقييم نتاجي الأول ، فأخذت القصيدة إلى والديّ . كانا في غرفة الطعام غارقين في أحد هذه المحادثات التي تدور بصوت هامس والتي

تفصل أكثر من نهر ما بين عالم الأطفال وعالم الكبار . مددت لهما الورقة ذات السطور ، وكنت ما زلت ارتعد من الزيارة الأولى للوحي . تناولها والدي بيده وهو ساهٍ ، وقرأها وهو ساهٍ ، وأعادها لي وهو ساهٍ ، ثم قال :

ـ من أين استنسختها ؟

وتابع حديثه مع أمي بصوت خفيض ، حول شؤونهما المهمة والملحة .

إن هذه الحكاية تبدو مفرطة بالنموذجية مما يشكك بصحتها ، ولكن هنالك في جميع الأحوال عنصرين حقيقيين: عدم مبالاة ، وليس عدائية عامل سكة الحديد السيد ريّيس تجاه نشاطات ابنه الشعرية (وهذا هو سبب الأسماء المستعارة العديدة التي استخدمها الشاعر في بداياته ، إلى أن استقر على الاسم الذي اشتهر به)، والنشاط المبكر للشاعر ، ونتائجه الباهرة في بداية صباه تكشف عن اساليب تقنية لا سبيل لمقارنتها بالنتائج التي توصل إليها غيره من الكتّاب المبكرين .

نحن نعرف أنه نشر قصيدته الأولى (« عيناي »، في مجلة كورّي ـ بويلا) وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وأنه فاز بالجائزة الأولى للشعر في مهرجان الربيع في تيموكو بعد سنتين من ذلك ؛ ونعرف أيضاً أنه كان يملك ديوانين منجزين هما : الجزر الغريبة وأتعاب بلا طائل ، وأنه لم ينشرهما ولكنه استخدم موادهما في بعض موضوعات ديوانه غسقيات ، وهو الكتاب الأولي الذي بدأ يتبلور في خياله

حينئذ . ومن الواضح أن الطموح على مستوى الشكل والمهارة التقنية البارزين في غسقيات (هذا الكتاب الذي لم يدخل عليه مؤلفه أية تعديلات بعد صدور طبعته الثانية عام ١٩٢٦)، ليست اموراً يمكن احرازها بين عشية وضحاها ، مما يدفع إلى الافتراض بأن بداياته السابقة كانت جديرة بالاعتبار .

لقد كنت مدفوعاً دائماً للتفكير في تفصيل مثير ومغرٍ لصداقة اتى على ذكرها نيرودا نفسه في مذكراته . ففي عام ١٩٢٠ ، عندما انهى الشاعر دراسته في الليسيه ، وكان يتهيأ للقفز إلى سنتياغو ليعيش مغامرته العاصمية .

في ذلك الوقت وصلت إلى تيموكو سيدة طويلة القامة ، ترتدي ملابس طويلة وتنتعل حذاء ذا كعب واطىء . كانت ملابسها بلون الرمل . إنها مديرة الليسيه ، قدمت من مدينتنا الجنوبية ، من ثلوج « ماغايانيس »... (...) لها ابتسامة عريضة ناصعة في وجهها الملوّح بسبب الدم والطقس... (...) لم تثر دهشتي عندما كانت تُخرج من ملابسها الكهنوتية كتباً تسلمني إياها فألتهمها ، وهي التي جعلتني أقرأ للأسماء العظيمة الأولى في الأدب الروسي التي أثرت بي كثيراً .

كان عمرها ٣١ عاماً ، وعمر الشاعر ـ الطفل ١٦ عاماً ، وهذا لم يمنع قيام صداقة ستستمر طويلاً ، بطول حياة المعلمة . كان اسمها لوثيا غودي ، ولكنها مثل صديقها الجديد كانت تكتب باسم مستعار ؛ فهي توقع قصائدها باسم غابرييلا ميسترال .

رامي المقلاع المتحمس

(١٩٢١ - ١٩٢٦)

« وأجعلُ ذراعيَّ تدوران
كذراعي مروحة مجنونة . . . »

في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٠ ، يتخذ نيفتالي بشكل نهائي اسم بابلو نيرودا كـ«nom de guerre»؛ وفي بدايات السنة التالية ، يغادر تيموكو ليتابع الدراسة كاستاذ لغة فرنسية في معهد سنتياغو التربوي . إن هذه الفترة من السنة تقطع السيرة النيرودية مثل سيف ؛ فقد خلّف وراءه أمطار الجنوب الطويلة ، والمادة الأولية الكثيفة التي سيغذي بها اعماله ؛ وفي السنوات الخمس التالية سينتج الشاعر نصف دزينة من الكتب ـ سيبرز منها أكثر من عمل متميز في سيرورته الشعرية ـ وسيستقر نهائياً في مهنة الشعر . وعندما تنتهي هذه السنوات الخمس ، يكون نيرودا قد بلغ الثانية والعشرين من عمره فقط ؛ ولكنه يكون قد امتلك زمام جميع الأسلحة التي ستجعل منه معيناً من الشعر لا ينضب طوال نصف القرن التالي . لا وجود لشيء استثنائي في حياته في هذه الفترة ـ ومع ذلك لا بأس من

ايجازها ـ، ولكن في قلب شاعريته السرّي كان ثمة شيء يترسخ وينمو ، بشكل ثابت ومستقر : ومع أن النجاح الباهر تأخر في أن يكون رفيقه اليومي ، خلال مرحلة « شفقيات ماروري »ـ اسم شارع النزل الطلابي الذي عاش فيه ـ فإن نيرودا كان يدرك أن قدره لن يعرف وفاء أكبر من وفاء الكلمة . وبعد سنوات طويلة ـ بمناسبة تكريمه في العيد الستين لميلاده ـ سيتذكر نيرودا تلك السنوات التنبؤية ؛ سنوات رامي المقلاع المتحمس .

هذا الكتاب ، الذي اثارته عاطفة حب عارم ، كان مشيئتي الطورية (Ciclica) الأولى في الشعر : ارادة شمول الانسان ، الطبيعة ، العواطف ، الاحداث ذاتها التي تتطور هنالك ، في وحدة واحدة . كتبت وأنا محموم ومجنون تلك القصائد التي اعتبرها ، بعمق ، قصائدي . واعتقد أني انتقلت بها من الفوضى إلى نوع من التخطيط الشكلي .

إن التجارب الأولى ، والإنحدارات الأولى إلى واقع المدينة التي ولجها ذاك الابن المتوحد للغابات ، لم تخل مع ذلك من الغرابة ، وحتى من الدهشة .

كان الكتّاب في سنتياغو يعيشون سجناء في صناديق . فهم يخرجون من الصندوق الذي يعملون فيه ليحشروا انفسهم في صندوق آخر له شكل المقهى أو البار ، ثم يمضون فيما بعد ليناموا في صندوق له شكل البيت . هكذا كنت أرى الحياة الأدبية . كيف يستطيعون العيش دون أن يهرعوا كل مساء

لجمع أزهار الكوبيهوي أو لملاحقة طيور البطريق كما يحدث في شواطىء امبريال السفلى ؟

وما أن تنقضي المفاجأة ، حتى يبدأ ، مع ذلك ، بالخوض في هذه الحياة التي كانت قدراً له : فتصبح مشاركته بمجلة كلاريداد أوسع ؛ ويترجم ريلكه واناتولي فرانس ؛ ويمارس النقد الأدبي ؛ وينشر ـ قبل أن يتم العشرين من عمره ـ كتابين هما : **غسقيات** ، **وعشرون قصيدة حب وأغنية يائسة** . لقد صار وجهاً معروفاً وسط هذه البوهيمية المضطربة الهائجة ، بوهيمية الطليعة الأدبية التشيلية لما بعد الحرب العالمية الأولى ، وصديقاً لأبرز الأسماء فيها : بدءاً من « دكتاتور الأدب الشاب » اليريو اويارتون « البودليري الشاحب ، ابن عصر الانحطاط المليء بالمزايا ، باربا جاكوب التشيلي ، المعذب ، المصاب بلوثة »، وانتهاء بروساميل دل بايي ، مروراً بأنخل كوتشاغا ، وخواكين تيفوينتيس سيبولفيدا ، ورااؤول اتوكار ، وهوميرو ارثي ، والبيرتو بالديبيا ـ « العزيز جثة » كما اعتادوا تسميته لنحافته وشحوبه ـ، دون نسيان الاستاذ الارستقراطي بيدروكيين ، الذي علمه اساليب « التواصل البليغ لفئة الانتلجنسيا »، أو تأثير خوان غاندولفو ، استاذه المثقف الآخر ، والذي اهداه ديوانه غسقيات . الغائب الأكبر في تلك المرحلة ، هو فيثنتي هو يدوبرو ـ الذي لم يحبه نيرودا أبداً ، إلاّ بشكل مهذب ودبلوماسي ، واعترف بأنه لم يكن يشاطره شاعريته ولم يكن يفهمها ـ كان يمضي في تلك السنوات مُشعاً ببريقه الباريسي ، على شفا الضجر وخيبة الأمل ـ. ولكن بين جميع هؤلاء ، كان البيرتو روخاس خيمينيث هو ، دون

شك ، الصديق الأساسي ، محرك الحياة ، والظرافة التي ستنتزع الشاب الريفي بقسوة من خجله ، واصراره على نتاجه الذي كان يستخرجه في ذلك الحين من عزلته السوداوية . هذا « المبذر الأكبر بحياته » كان « أنيقاً ورشيقاً ، رغم البؤس الظاهر الذي يتخايل وسطه مثل عصفور مذهب »، إنه صاحب « السلوك المتعفف الأبي ، والتفهم السريع لأدق النزاعات ، والمعرفة الجذلى والقابلية الشهية لكل الأشياء الحيوية . لقد تذكره نيرودا في صورة من أجمل الصور في مذكراته :

> كتب وفتيات ، زجاجات وسفن ، مسالك وارخبيلات ، كل هذا كان يعرفه ويستخدمه حتى في أدق دقائقه (. . .) لم يُعدني أبداً بمظهره الارتيابي ، ولا بعصفه الكحولي ، بيد أني ما زلت اذكر حتى الآن بحنين شديد وجهه الذي كان يضيء كل شيء ، ويجعل الجمال يطير في كل الانحاء ، كما لو كان يبعث الحركة في فراشة مختبئة (. . .) كان يكتشف شعراء من فرنسا ، وقوارير خمر قاتمة مدفونة في الاقبية ، وكان يبعث برسائل غرامية إلى بطلات فرانسيس جيمس . إن ابياته الشعرية كانت تتجعد في جيوبه ، دون أن تنشر ، وهي لم تنشر حتى الآن .

ويعتبر أورلاندو اويارثون ـ شقيق اليريو ، والذي نشرت مجلة اورورا مذكراته ، في سنتياغو عام ١٩٦٤ ـ إن صداقة روخاس خيمينيث كانت عاملاً حاسماً بالنسبة للخيال النيرودي في التخلي عن مهنة التعليم والاتجاه بكل الامكانيات نحو الأدب ؛ فقد كتب

اورلاندو يقول : جدران الطين المطلية بالكلس الأبيض في غرفة بابلو كانت مغطاة برسوم ، وأبيات شعر وعبارات هازلة تسعى كلها لاخراج بابلو من انزوائه السوداوي ؛ كتابات من نوع : ليس مستحسناً أن يحيا المرء وحيداً !

وتحدثنا مرغريتا اغييري أن روخاس خيمينيث ، هذه الشخصية الروائية ، قد توفي في سنتياغو ، وهو في اوج الشباب ، يوم ٢٥ أيار (مايو) ١٩٣٩ ، بعد اصابته بذات الرئة التي نزلت به لانه ترك معطفه مرهوناً في البار الأخير حيث كان يشرب . ويتلقى نيرودا ، وهو قنصل حينئذ في برشلونة ، نبأ موته بحزن شديد .

كنت أعلم أنه سيموت بين لحظة وأخرى ، فحياته الجنونية كانت استمراراً لانتحار آخر . ولكن يبدو لي أن ثمة خيانة في اختطاف الموت له دون أن أكون إلى جانبه . لقد كانت لصداقته قيمة كبيرة جداً في سنواتي الأولى . فبينما كان يسخر مني ، برقته اللامتناهية ، ساعدني على التخلص من لهجتي القاتمة (...) لقد كان مثل بحار ماجن ، أدبيّ بلا حدود ، وكاشف عن روائع صغيرة وحاسمة من الحياة العادية .

وتكريماً للذكرى الصديق الميت ، أجرى نيرودا طقساً كطقوس ارفيوس ـ برفقة الرسام اساياس كابيثون ـ وذلك بتقديم شمعتين عملاقتين لقديسة البحارة الصيادين ، في كتدرائية سانتا ماريا دل مار ، وقضاء ليلة في الميناء ، والسكر بنبيذ أخضر . كما فعل شيئاً آخر ؛ شيئاً أكثر حسماً : إذ كرّس له أفضل مرثاة كتبها ، وهي واحدة من قمم المراثي المكتوبة بالاسبانية في هذا القرن ومن أكثرها

لوعة ، بعنوان : **البيرتو روخاس خيمينيث يجيء طائراً .**

ما بين الريش المخيف ، ما بين الليالي ،
ما بين ازهار المانوليا ، وبين البرقيات ،
ما بين ريح الجنوب وريح الغرب البحرية ،
تجيء طائراً .

. . . .

يوجد « روم »، وأنت وأنا ، وروحي حيث أبكي ،
ثم لا أحد ، ولا شيء ، سوى سُلَّم
محطم الادراج ، ومظلة :
وتجيء طائراً .

إلى البحر هناك . أُنزلُ ليلاً واسمعك
تأتي طائراً تحت البحر ، وحيداً ،
تحت البحر الذي يسكنني ، قاتماً ،
تجيء طائراً .

أسمعُ جناحيك وطيرانك البطيء ،
ومياه الموتى تصفعني
مثل حمائم عمياء مبللة :
تجيء طائراً .

تجيء طائراً ، وحيداً متوحداً ،
وحيداً بين موتى ، وحيداً إلى الأبد ،

تجيء طائراً دون ظل ودون اسم ،
دون سكر ، دون فم ، دون ورد ،
تجيء طائراً .

لم تكن تلك السنوات هي سنوات الصداقة فحسب ، وإنما هي أيضاً سنوات الغراميات العاصفة . ومع أن نيرودا كان حذراً دائماً - ربما بمبالغة - فيما يتعلق بماضيه العاطفي ، فقد أمكن معرفة وجود حبين كبيرين على الأقل في سنوات ربيعه الغرامي ، وهما : ماريسول وماريسومبرا ، اللتان يسميهما في مذكراته . الأولى هي الحب الذي خلفه في تيموكو ، والثانية هي الحبيبة في سنتياغو . وكلتاهما تظهران في غسقيات ، وكلتاهما - على التوالي - ملهمتا القصائد الذائعة الشهرة « **عشرون قصيدة حب . . .** ». وتعودان للظهور تحت اسميّ تيروسا وروساورا ، بعد نضج الشاعر ، في بعض أشعار ديوان ذكريات ايسلا نغرا .

الآن وأنت تأتين زائرة ،
أيتها الصديقة القديمة ، أيها الحب ، أيتها الطفلة اللامرئية ،
أرجوكِ أن تجلسي
مرة أخرى
على الأعشاب .

يبدو لي الآن
إن رأسكِ قد تغير .
لماذا

ـ لتأتني ـ
غطيت بالرماد
شعركِ الفحمي الباسل
الذي حللته بيدي ، في برودة
نجوم تيموكو ؟

ويقول لروساوا ، ابنة أحد أحياء سنتياغو الشعبية ، بعد مرور اربعين سنة أيضاً :

تغير الرسام
ولم يرسم الوجوه ،
وإنما العلامات والندوب ،
وأنتِ ماذا تفعلين
دون ثقب
الألم والموت ؟
وأنا ماذا أفعل
بين أوراق الأرض ؟

وإذا كنت اذكر الآن هذه النماذج من الوفاء ، فلكي أبرز ـ بشكل عابر ، وفي الهامش الصغير الذي يسمح به هذا الكتاب ـ إلحاح الذاكرة في أعمال نيرودا كلها ؛ والورع تجاه الكائنات والأشياء التي مرت في حياته الخاصة ، ليس لهذه التفاصيل الحياتية طبعاً كبير اهمية (مع أنها ضرورية احياناً للاحكام التي اقصدها)، وقد تحدث الشاعر نفسه عن ذلك في محاضرة ، نصها الاصلي محفوظ في ارشيف خورخي سانهويثا .

كنت قد وعدتكم بتقديم تفسير لكل قصيدة من قصائدي الغزلية . لقد نسيت أن السنوات قد مضت . وهذا لا يعني أني نسيت احداً ، وإنما إذا فكرنا جيداً ، فإننا نقول : ما الذي ستستخلصونه من الأسماء التي سأذكرها لكم ؟ ما الذي ستستخلصونه من ضفائر سوداء في شفق محدد ؟ ما الذي ستستخلصونه من عينين واسعتين تحت المطر في شهر آب ؟ ما الذي أستطيع قوله عن قلبي ولا تعرفونه ؟

لنتكلم بصراحة . لم انطق يوماً بكلمة حب ليست مخلصة ، ولم استطع أن اكتب بيتاً واحداً من الشعر بلا حقيقة .

إن الصحيح والباقي هو ، دون شك ، الكتب الستة التي كتبها خلال هذه الفترة الغزيرة . ويكفي أن نقول ؛ لو أن نيرودا مات أو صمت وهو في الثانية والعشرين من عمره ، فإن تلك الكتب كانت ستكفي لمنحه مكانة ذات مغزى في الشعر الغنائي المعاصر الناطق بالاسبانية . وحتى الكتب الصغيرة ـ المقيم وأمله : وهو «nouvelle» قاتمة كتبها استجابة لرغبة ناشره ؛ وخواتم ، وهو مجموعة من النثر الشعري ـ تلفت الانتباه بلغتها الواثقة ، مثل براعم صغيرة متفتحة على شجرة وارفة وراسخة في الأرض . أما الكتب الأربعة الأخرى فلا بد من الحديث عنها كل على حدة .

في محاولة لتجاوز غسقيات، كتب نيرودا رامي المقلاع المتحمس وانتهى منه تماماً عام ١٩٢٤ ، ولكن الكتاب لم يرَ النور إلّا بعد مرور عشر سنوات ، وذلك بسبب رقابة الشاعر الذاتية ، فبعد أن تأكد

من أنه وجد الصوت العظيم المتميز الذي كان يبحث عنه ، ظن أن في صفحاته التي كتب تأثراً ظاهر الوضوح بالشاعر الاروغوايي كارلوس سابات اركاستي . ولقد احتفظ نيرودا دائماً بهذا الرأي ، مع أن الجزء الأكبر من أفضل أشعار الكتاب كان يتنفس من أنفاس **عشرون قصيدة حب** التي لا شك في أنها أنفاس نيرودية (« أنتِ كلكِ من زبد نحيل وخفيف / تعبرك القبلات وتضمخك الأيام ») وحتى في الوتيرة العالية - إذا ما جردنا بلاغته الحماسية - التي وصل إليها الشاعر في دواوين **الإقامة** .

امتلئي بي .
اشتاقي إليّ ، استنزفيني ، اسكبيني ، اقتليني كأضحية .
طالبيني ، التقطيني ، احتويني ، خبئيني .
أريد أن أصير مُلكاً لأحد . مُلكاً لكِ . إنها ساعتكِ .
أنا الذي مررت قافزاً فوق الأشياء ،
أنا الهارب ، العليل .

ومن الأعمال المعاصرة لهذه الجهود يأتي ديوان **محاولة الانسان اللانهائي** ، وربما هو من أقل كتب نيرودا قراءة ، والكتاب الذي نال ، دون شك ، أقل تعليق من الشراح . وبعد أربعة عقود من كتابته ، قدم له مؤلفه بعض الكلمات العادلة :

لقد نظرت دائماً إلى **محاولة الانسان اللانهائي** كأحد البؤر الحقيقية لشعري ، لاني وأنا أنظم هذه القصائد ، في تلك السنوات البعيدة ، كنت أتوصل إلى وعي لم أكن امتلكه قبلاً . وإذا ما كانت للتعابير ، أو للوضوح ، أو للغموض

قياسات ، فإنها كذلك في هذا الكتاب ، الشخصي إلى أبعد الحدود .

وعلى الرغم من كونه أكثر كتبه احكاماً ، فإن **محاولة الانسان** يتضمن ، فعلاً ، بعض العناصر التي سيعيد الشاعر صياغتها في نضوجه الشعري . أنني أرى الكتاب كله وكأنه قصيدة واحدة مرتبة حسب سياق يبدأ وينتهي في ما هو ليليّ : المرأة كاحتفال ، البيت ، السماء ، المرأة كادانة ، العزلة . وبين ليلة البداية وليلة النهاية ، تقوم الفروقات في الرحلة ، في الاشارة المستمرة إلى طريق أو انتقال يحقق الشاعر من خلاله العبور من الرواق الرطب والكئيب ، إلى التواصل . وعلى امتداد ابيات الشعر الثلاثمائة التي يجتازها نيرودا فإنه يجرب أيضاً قفزات تقنية لا وجود لها بين كتّاب هذه المرحلة (تركيب بحور شعرية ، توليف اوزان شعرية بيضاء بأوزان مرسلة ، ثقة بالتداعي العفوي ، قيود صوتية) ، ولكنه يقع بعد سنوات تحت بساطة التركيب الظاهرية في كتبه الكبرى .

ومع ذلك ، فإن الصمت النسبي الذي أحاط ، في ذلك الحين ، **بمحاولة الانسان** لا يمكن أن يكون قد اثقل كثيراً على كاهليه ، خصوصاً وأن لديه ـ وهو لم يكد يتم سنواته العشرين ـ كتابين ناجحين صيتهما في تعاظم . أولهما **غسقيات** ، وكان قد بدأه في تيموكو سنة ١٩٢٠ ، وأنهاه في سنتياغو ١٩٢٣ ، العام الذي صدرت فيه طبعته الأساسية . ومن بين الخمسين قصيدة التي تؤلف الديوان ، هناك عدد من القصائد التي انهكت انطولوجيات الشعر الناطق بالاسبانية لكثرة ما أعيد نشرها طوال نصف القرن الأخير .

ولا بد أنه من الصعب الحديث هكذا عن أول كتاب لمؤلف خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار أن مؤلفه نظم معظم قصائده وهو ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمره . وما هو جدير بالذكر ، إذا اتفقنا أن عاطفة الكتاب هي عاطفة مراهقة ـ مع أنها ليست كذلك دائماً ـ فإن براعته الشكلية وغنائيته العميقة لا تبدوان منتميتين مطلقاً لهذه المرحلة الحياتية المزعزعة . فقصائد مثل : « السمراء ، المقبّلة »، أو « القلعة الملعونة » (مع ملاحظة تمثله الواضح لروبين داريو)، أو « فارويل » (« من اعماقك ، وجاثياً / ثمة طفل حزين ، مثلي ، يتطلع إلينا . »)، أو « حب » أو « أيتها المرأة ، لم تعطني شيئاً » أو « الشعب »، قد استنسخها آلاف المرات مراهقون يجهلون دون شك أن كاتبها هو طفل آخر رائع عجيب .

لكن قمة هذه المرحلة ـ كعمل لا نقاش في براعته بين جنسه ـ تأتي لنيرودا عام ١٩٢٤، مع نشر « عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة » . إن جميع النظريات التي يمكننا تصورها ـ بدءاً من الاتهامات بالسرقة وحتى أكثر القصص غرابة حول اللُّقْية العرضية ـ انهالت على هذا الكتاب (وهو دون شك أكثر الكتب حظاً ، فيما يتعلق بعلاقته بالجمهور ، بين جميع الكتب التي كتبت بلغتنا الاسبانية) . للانتقاص أو للغمز من نجاحه المذهل : ففي عام ١٩٦١ تجاوز عدد نسخ الكتاب المليون نسخة ـ هذا دون اعتبار طبعات « القرصنة » العديدة ـ، وفي الوقت الحالي تجاوز العدد المليونين ونصف المليون نسخة ـ باللغة الاسبانية فقط ـ، وما زالت تصدر من الكتاب الطبعة تلو الأخرى بجميع لغات الأرض تقريباً . من المستحيل التوصل إلى

مفاتيح هذه الظاهرة التي لا شبيه لها في التوزيع ، لكن ما هو مؤكد أن الدسائس التي حيكت حوله قد انزاحت خلال نصف قرن من الحماسة العالمية ، وهو برهان يتحطم أمامه كل جدال .

بالنسبة لذوقي ، فإن هذا الكتاب بعيد عن أن يكون أفضل مؤلفات نيرودا ، ولكني لا استطيع العودة لتصفحة إلاّ واعترف باتقانه الذي لم يسبق إليه على صعيد الشكل ، مضافاً إليه بساطة وشفافية تجعلانه شبيهاً بسيل مائي : إنه واحد من هذه الكتب الشعرية النادرة التي لا يتعثر فيها الوزن والايقاع ولو لمرة واحدة ، حتى يمكن للمرء أن يقرأ مجموع صفحاته وكأنها أغنية واحدة .

ومع أن هذا الكتاب لم يكن أفضل كتب نيرودا فإنه ، على أية حال ، المفتاح الذي فتح أمامه فعالية الأوزان الشعبية ، والاوتار التي تصدح في مسامع العالم من الأزمنة السحيقة ، عندما كان الشعر شفهياً ، وكان لا بد للكلمة ، حتى لا تندثر ، من موسيقى تمنحها الحياة . هذا النهج سيصبح مفتاحاً مميزاً للشعر النيرودي اعتباراً من النشيد الشامل : ولكنه سيحتاج لآلام طويلة ولهاويات اقامة في الأرض حتى يتدفق دونما عوائق ؛ كنهر ، كريح ، أو كنمو شجرة : كظاهرة جيولوجية متصالحة في آخر الأمر مع الطبيعة .

اقامة في الأرض

(١٩٢٥ - ١٩٣٥)

« ويحدث أن أتعب من كوني بشراً » .

بدأت قصائد « **اقامة في الأرض** » في سنتياغـو حوالي عـام ١٩٢٥ ، ونظمت في غالبيتها خلال سنوات الشاعر القنصلية في الشرق ، ورأت النور في طبعة فاخرة محدودة بمئة نسخة عام ١٩٣٣ . كانت المجموعة مؤلفة من /٢٨/ قصيدة وخمسة نصوص نثرية ، ثم توسعت باضافة جزء ثانٍ إليها ، وطبع الكتاب في طبعته العامة والنهائية في مدريد عام ١٩٣٥ : إنهما جزآن صغيران ، لا يتجاوز مجموع قصائدهما الخمسين قصيدة إلاّ قليـلاً . إن هذا العـدد (خمسون قصيدة في عشر سنوات) يبدو ضئيلاً إذا ما قورن بغزارة انتاج نيرودا قبل وبعد هذه المرحلة من شعره والمتمثلة **بإقامة** . وليس هذا مصادفة على كل حال ، فبعد دفق اللهو والشعر في المراهقة ،

وقبل حرب اسبانيا ، التي ستترك أثارها إلى الأبد في نتاجه وطريقة حياته ، كانت هذه السنوات العشر الحاسمة في حياة الشاعر ، ما بين العشرين والثلاثين من عمره ، وربما هي المرحلة الأكثر غنى في حياته من الناحية الوجدانية .

بعد أن قرر تكريس نفسه جسداً وروحاً للأدب ، نصب نيرودا شباكه ـ بمعايير متقنة ـ باتجاه الحصول على منصب دبلوماسي . وقد اعطى انتظاره الطويل المسلي ـ كما يروي لنا في مذكراته ـ نتائجه في اواسط عام ١٩٢٧ ، عندما حصل اخيراً على تعيين كقنصل فخري في رانغون (بيرمانيا)، التي توجه إليها في شهر حزيران (يونيو) من العام نفسه ، ماراً لأول مرة في حياته بمدريد وباريس ، وهما المدينتان اللتان سيصبح لهما شأن كبير في مستقبله .

خلال السنوات الخمس التي امضاها في آسيا ، وصل مزاج الشاعر المتقلب والسوداوية التي سيطرت على مؤلفات شبابه إلى مداها الأقصى : سيجرب الحب ، الكآبة ، الملل ، العزلة ؛ وستتواتر في شعره بكرة ـ انعكاساً شفافاً لحياته ، كالعادة ـ مناطق بذاءات كان تصورها مستحيلاً إذا ما قورنت بنتاجه السابق ، وهو لن يعود لطرقها في المستقبل . ومن خلال تجربته الحياتية ، يظهر **اقامة في الأرض** ، هذا الكتاب الفريد في المسيرة النيرودية ، والذي لا يمكن فهمه دون التعرف على المشهد الحياتي الذي رافق مخاضه .

بدأ بكتابته في بيرمانيا ، وتنقل معه خلال خمس سنوات عبر سيلان ، والهند ، وجاوة ، وسنغافورة ؛ وتضمن الحب العنيف الساطع الذي ربطه بخوسيه بليس ، وزواجه تحت وطأة الملل

والوحدة من امرأة لم يحبها أبداً ؛ ومغامراته الجنسية العابرة مع فتيات كولومبو، ومراسلته الكئيبة مع الروائي الارجنتيني هيكتور ياندي ؛ وحنينه لتشيلي ، وحاجته المادية ، ويأسه من نشر المادة التي نظمها .

خوسيه بليس ـ وهي امرأة بيرمانية جميلة وعاطفية ، غيورة مثل زناد سلاح حساس ـ برزت في حياة نيرودا كتجسيد مادي لكل شعره في الحب ، أغرقته ، خنقته ، سهدت احلامه وهي تحمل بيدها سكيناً حادة ، وتقف مستعدة لقتله في أية لحظة ، أمام أي ارتياب يراودها بفقدانه . وعندما نُقل الشاعر من رانغون إلى سيلان ، لحقت به وأقامت في البيت المقابل لبيته ، حيث راحت تراقب زياراته وتعتدي على النساء اللواتي يقربنه . أخيراً ، تطردها الشرطة الاستعمارية من الجزيرة لسوء سلوكها المتواصل : لقد ارتاح نيرودا منها بطريقة ما ، ولكنه تأثر في اعماقه من تلك العاطفة العاصفة ، ولم يتمكن من نسيان حبيبته ولا الوداع المؤثر بينهما :

كما في طقس من الطقوس الدينية كانت تقبل ذراعيّ ، بدلتي ، ثم نزلت فجأة حتى حذائي ، دون أن أستطيع منع ذلك . وعندما نهضت من جديد ، كان وجهها مغبراً ملطخاً بطلاء حذائي الأبيض . لم أستطع أن أقول لها أن تتخلى عن الرحلة ، وأن تغادر معي الباخرة التي ستحملها بعيداً عني إلى الأبد . لقد منعني العقل عن ذلك ، ولكن قلبي أصيب هناك بندب لم يلتئم بعد . ذلك الألم المضطرب ، وتلك الدموع الرهيبة المنحدرة على الوجه المغبر بالبياض ، ما زالا راسخين في ذاكرتي .

وسيكرس لها قصيدتين في إقامة (القصيدة التي تحمل اسمها ، والقصيدة الشهيرة التي بعنوان « تانغو الارمل »)، ثم قصيدتين اخريين ـ بعد اربعين سنة ـ في كتاب ذكريات ايسلا نغرا ، تعتبر احداهما أجمل حسرة حب في هذا الكتاب المليء بالحب .

ماذا جرى للغاضبة ؟
كانت حرباً
تحرق المدينة المقدسة
التي اغرقتها ،
لم يخرج التهديد المكتوب
أو الشباب الاثيري ، مرة أخرى ،
بحثاً عني ، لمطاردتي
كما كان يخرج منذ عدة أيام ، هناك بعيداً .
كما كان يخرج منذ عدة ساعات ،
الساعات التي كوّنت ، ساعة بعد ساعة ،
الزمن والنسيان
الذي ربما صار اسمه موتاً ،
والموت : كلمة مشؤومة، أرض سوداء
فيها ترقد خوسيه بليس
نَزِقة
ومضيفة إلى سنواتي النائية
تجعيدة بعد تجعيدة ، حلّت في وجهها ،
لانها عبر العالم كانت تنتظرني ،

ولم أصل إليها أبداً ،
ربما ، بسبب آلامي ،
ولكن ربما في الكأس الفارغ ،
في صالة الطعام الميتة
كانت تستهلك صمتي ،
أو خطواتي البعيدة ،
ربما رأتني إلى أن ماتت
كما لو كنت وراء الماء ،
كما لو كنت اسبح كشيء بلّوريّ .
وبحركاتها المشوشة ،
لا تقدر على امساكي
فتفقدني
كل يوم ، في البحيرة الشاحبة
حيث بقيت نظراتها معلقة .
إلى أن أغمضت عينيها
ـ متى ؟
إلى أن طواها الزمن والموت
ـ متى ؟
إلى أن حملها الحقد والحب
ـ متى ؟
إلى أن لم تعد تلك التي احبتني بغضب ،
بدم ، بثأر ،
بياسمين ،

لم تعد قادرة على متابعة الكلام لوحدها ،
وهي ساهمة في بحيرة غيابي .

ربما هي الآن
تستريح أو لا تستريح
في مقبرة رانغون الكبرى .
أو ربما على ضفة
نهر « يراوادي » احرقوا جسدها
طوال ظهيرة ، بينما النهر يهمس
ما قلته لها باكياً .

اختفت خوسيه بليس من حياته ، وأحس نيرودا بأنه يغرق في العزلة المدارية المنوِّمة : لا ترافقه سوى النِمْسة ـ كبريا ، التي سيفقدها بعد فترة قصيرة ـ، ومرافقه الادمي الوحيد هو الصبي برامبي ، الذي « كان يبدو وكأنه نسي اللغة ». وكان قليل الميل نحو الانكليز الذين « يلبسون السموكنغ كل ليلة »، وأقل من ميله نحو هؤلاء كان ميله نحو المُثْرِين الهنود ، فاختار نيرودا الوحدة في حي « ويلواذا » البعيد ، حيث استأجر بيت (بنغل) إلى جانب البحر . وسيتأخر طويلاً « أياماً وسنوات »، ليقيم اتصالاً مع كائنات تلك المناطق . ولهذه الفترة ترجع رسائله الأولى إلى صديقه بالمراسلة هيكتور ياندي ، وهي الرسائل التي نشرتها لأول مرة مرغريتا اغييري ، والتي سأقتطف منها بعض المقاطع التي تبدو لي مهمة من أجل صورة شعاعية للفترة الزمنية التي كتب بها **إقامة في الأرض** .

١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨ .

. . . الآن ، ونحن نستعد لهول المستعمرات المهملة ، فلنتناول أول « ويسكي أند صودا » على شرفك أيها الصديق الطيب ياندي . الشراب بوحشية ، الحر ، الحميات ، المرضى ، والمخمورون في جميع الانحاء (. . .) أما أنا فالنعاس ، والاجهاد ، والقيظ تقرضني . لن أكتب أية رسائل ، ولا أية أشعار أخرى ، ففي قلبي دخان (. . .) في التي تبعث بها إليّ ، ثمة فوران كثير ، حياة كثيرة ولكن القمم قليلة (. . .) أنا لا أجد في حياتي أو فيما حولي اموراً نقية بالكامل وقادرة على جذبي . وبينما أنا أحاول الانتقاء ، أشعر بأن الوقت يمضي . ياللرعب !

١١ أيار (مايو) ١٩٢٨ .

. . . أريد الخروج الآن من حالة روحية بائسة حقاً (. . .) فيما كنت أتقدم بحياتي ، كنت أجعل عملي الأدبي أصعب فأصعب ، فرحت أرفض وادفن أشياء كانت محببة لي كثيراً من قبل ، إلى أن اصبحت أمضي وقتي في اهتمامات فقيرة ، وافكار ضحلة ، متأثراً بهذه المخارج الفجائية ، ومستبدلاً مضمونها ببطء شديد (. . .) أن قدرة شعرية عنيفة ما زالت في داخلي ، وهي تقودني شيئاً فشيئاً نحو طريق صعب المنال ، بحيث اني انجز اعمالي في اغلب الاحيان بعد معاناة شديدة ، مدفوعاً بحاجتي لاحتلال موقع بعيد بعض الشيء بقواي التي هي بكل تأكيد قوى ضعيفة جداً .

٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨ .

. . . ولكن ، حقاً ، ألا تجد نفسك محاطاً بالدمار ، بالموت ، بأشياء بائدة ؟ ألا تشعر بأنك تصطدم في عملك بصعوبات ومستحيلات ؟ أليس كذلك ؟ حسناً ، لقد قررت أن اصنع نفسي من هذا الخطر ، وأن استخلص النفـع من هذا النضال، وأن استخدم هذا الضعـف (. . .) لقد انهيت تقريباً ديوان اشعار بعنوان : **اقامة في الأرض** ، وسترى كيف أستطيع أن أعزل اسلوبي ، واجعله يتذبذب بانتظام ما بين المخاطر ، وسترى بأي مضمون متين منسق وبأي اصرار أكوّن هذه القوة المتجانسة .

٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٩ .

. . . لقد ظننت بأني عاجز عن التعبير القادر على التواصل ، واحطت نفسي بجو من السرية ، انني اقاسي كمداً حقيقياً لأقول شيئاً ، حتى ولو كان ذلك لنفسي ، يبدو لي وكأنه لا وجود لكلمة واحدة تمثلني ، وأنا أقاسي الكثير من هذا الأمر . أجد جميع عباراتي مبتـذلة ، منفصلة عن كيـاني (. . . انني وحيـــد؛ كـل عشـــر دقـائق يـأتي خـادمي راتنـاي، يأتي كـل عشـر دقـائق ليمـــلأ كـأسي . أشعـر بأني قلق ، منفي ، محتضر(. . .) ياندي : لا أحد أكثر وحدة مني . انني التقط كلاباً من الشوارع ، لتعيش معي ، ولكن هذه الحيوانات الملعونة تتخلى عني بعد وقت (. . .) إن **اقامة في الأرض** هو كومة كبيرة من أبيات الشعر ذات الرتابة العظيمة ، إنها أشعار طقوسية تقريباً ، فيها سحر خفي

ومعاناة كما كان يفعل الشعراء القدماء . إنها شيء شديد التناسق ، كشيء واحد مكرور ، كتمرين أبدي على شيء بلا نجاح .

٥تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٩ .

. . . إننا معشر القناصل الذين من مرتبتي ـ قناصل الشرف ـ نحصل على مرتب بائس . . أدنى راتب لموظفي الوزارة . وقلة النقود جعلتني اعاني البؤس حتى الآن ، وحتى هذه اللحظة أعيش مليئاً بتناقضات غير شريفة . لدي ١٦٦ دولاراً اميركياً في الشهر ، وهذا الراتب يحصل عليه هنا عامل من الدرجة الثالثة في دكان عطار . والأسوأ من ذلك ، ان استلام هذا الراتب يعتمد على المداخيل التي تتراكم في القنصلية ، هذا يعني أنه إذا لم تكن ثمة صادرات إلى تشيلي في أحد الشهور فلن يكون هنالك راتب لي . إن هذا كله في الحقيقة مؤلم ومهين . ففي برمانيا كنت امضي أحياناً خمسة شهور بلا مرتب ، وهذا يعني بلا أي شيء . وما هو أسوأ ، ان جميع النفقات الضرورية ، كالطاولة ، والمفروشات ، والتصاريح ، وإيجار المكتب عليّ أن ادفعها أنا (. . .) اعذرني على هذه التفاصيل المشؤومة ، التي تشكل الحقيقة والقلق اليومي . ربما ، لو كان لي راتب كامل وثابت ـ أي لو انه كانت لديّ ضمانات باستلامه في نهاية كل شهر ـ، لما كنت اهتم بقضاء حياتي في أي مكان ، بارداً كان أو حاراً . أجل ، فأنا الذي كنت أنظر دائماً لحياة اللامسؤولية والحركة

سواء بالنسبة لحياتي أو لحياة الآخرين ، أشعر الآن برغبة كئيبة للاستقرار ، للثبات على شيء ، للحياة أو الموت بهدوء . أريد الزواج أيضاً ، وبسرعة ، غداً بالذات ، وأن أحيا في مدينة كبرى . إنها رغباتي الملحة ، وربما لن استطيع تحقيقها أبداً .

٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٩ .
. . . كنت أفكر بديوان قصائدي الجديدة ، هل هو ممكن ما قلته لي من أنهم في بوينس ايرس يدفعون شيئاً ما مقابل نشره ؟ ربما إنك تبالغ بهذا ، فهو يبدو لي غريباً (. . .) لقد استغرقت خمس سنوات في كتابة هذه الأشعار ، وكما ترى ، فهي قصائد قليلة جداً ، تسع عشرة فقط ، ومع ذلك ، فإنه يبدو لي أن كل عبارة من عباراتي مشربة بذاتي ، بل هي تقطر من ذاتي .

٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩
. . . على الشاعر ألا يكرر نفسه ، فهو منتدب لأمر كبير ألا وهو النفاذ إلى الحياة وجعلها نبويّة : على الشاعر أن يكون خرافة ، كائناً اسطورياً (. . .) فما هو الهدف من الشعر إذا لم يكن عزاء وباعثاً للاحلام ؟ (. . .) وهذا ما أريد تحقيقه : قصيدة شاعرية . فمن فضولي العلمي ، ومن اعجابي بالسيارات ، ومن ميلي نحو هذه الطبيعة الغريبة ، لا يبقى سوى الشيء القليل عندما اجلس ، ليلاً ، لأكتب وحيداً ، أمام ورقة . عندها لا أشعر إلاّ بوجودي

ومحناتي ، وسعاداتي ، وعواطفي الخاصة .

٢٧ شباط (فبراير) ١٩٣٠
. . . لا أشعر حالياً بشيء أستطيع كتابته ، فكل الأشياء تبدو لي ليست بلا معنى ، وإنما فائضة بالمعاني . أجل ، أشعر بأن جميع الأشياء قد وجدت التعبير عن ذاتها بذاتها ، وبأنني لست جزءاً منها ولا قدرة لي على النفوذ إلى اعماقها .

وسط هذه الفاقة ، ومن هذه الشاعرية - وهي لا علاقة لها بالشاعرية المدروسة التي سيتحدث عنها بعد عشرين سنة في رسالته إلى كاردونا بينيا -، شيد نيرودا الهندسة « الرتيبة » لاقامته التي بها « سحر خفي ومعاناة كما كان يفعل الشعراء القدماء » وفيها أيضاً شهوانية ، وتراخ ، وتأمل ، وخدر .

خلال الفترة الأخيرة لوجوده في سيلان ، يتمكن الشاعر من تحطيم حصار العزلة . ومع أنه لا يقيم علاقات عميقة ، فإنه يستسلم إلى ترف صحي ومعقول .

الحقيقة هي أن الوحدة التي كنت أشعر بها في كولومبو لم تكن ثقيلة فحسب ، وإنما كانت نوعاً من السبات . كان لي عدد قليل جداً من الاصدقاء في الشارع الذي كنت اسكن فيه . كانت تمر بسريري ، الذي كأسرة المعسكرات ، صديقات من مختلف الألوان دون أن يخلفن فيه أثراً سوى البريق الجسدي . لقد كان جسدي محرقة متوحدة . كانت صديقتي « باستي » تجيء على الدوام ، مع بعض صديقاتها : صبايا سمراوات

ومذهبات ، يجري في عروقهن دم بوبري ، دم انكليزي ، ومما قسم الله، كنّ جميعهن يضطجعن معي بشكل رياضي وغير مصلحي .

وفيما هو في هذه الحالة المعنوية ، فوجىء في اواسط عام ١٩٣٠ بتعينه ، وبالتالي انتقاله ، كقنصل لتشيلي في سنغافورة وباتافيا (جاوة): وفي هذه المدينة الأخيرة انهى ديوانه اقامة في الأرض (الذي سيصبح في طبعته النهائية الاقامة الأولى)، ويتزوج من ماريا انطونيا هاغينار ، « إنها من أصل كريوليّ ، ومن الأفضل القول إنها هولندية مع بضع قطرات من دم ملاوي ، أنني جد معجب بها ». إنه زواج بقليل من الحب أو بلا حب ، تحقق كمبادرة أمام الملل والوحدة ، ومع ذلك فإن العلاقة من « ماروكا »- كما كان يسميها الشاعر- تنفرد ببعض الخصائص : فهي الوحيدة من بين زوجاته التي ستمنحه طفلاً (مالفا مارينا : طفلة عليلة منذ ولادتها ، ماتت فيما بعد في اوروبا قبل أن تتم الثامنة من عمرها)؛ وهي الوحيدة أيضاً التي سيتجاهلها تماماً وبشكل منهجي في اعماله ومذكراته . وتؤكد مرغريتا اغييري بأنه لم يكرس لها أية قصيدة على الاطلاق ، حتى ولا في الفترة التي عاشاها معاً ، ولكن ما هو أكثر إثارة للغرابة إنه لم يتعرض لمجرد ذكرها في فصول السير الذاتية العديدة التي كتبها (ابتداء بـ« أنا هذا » في النشيد الشامل وحتى ذكريات ايسلانغرا) حيث توجد استحضارات رقيقة لغرامياته في الطفولة والمراهقة . إن هذا التجاهل ، بل هذا الازدراء ، يبلغ أوجه في اعترف بأني قد عشت، حيث يكرس لها سطرين مقتضبين قبل أن يعطي الكلام

لمرغريتا اغييري . وحتى هذا الاستحضار المختصر ، يبدو وكأن كاتبه شخص محايد . أما في رسائله إلى هيكتور ياندي ـ وهي رسائل حميمة كما رأينا في مناسبة سابقة ـ فقد بقي لنا القليل من الوصف العاطفي للأيام الأولى التي امضاها الزوجان ، ولندع الرسائل نفسها تتكلم :

زوجتي هولندية ، ونحن نعيش معاً بكل جوارحنا ، وبكامل السعادة في بيت أصغر من كُشْتُبان . أنا أقرأ ، وهي تخيط . إن الحياة القنصلية ، والبروتوكول ، والمآدب ، والسموكنغ ، واوشحة التشريفات ، والبدلات الرسمية ، وحفلات الرقص ، والكوكتيل التي تأخذ وقتنا ، ما هي إلاّ جحيم . البيت هو الملجأ ، ولكن القراصنة يحيطون بنا . نكسر الركود ونهرب بالسيارة ، حاملين معنا « ترمس » كونياك وكتباً ، وننطلق إلى الجبال أو الشاطىء . نستلقي على الرمال ، وعيوننا ترمق الجزيرة السوداء ، سومطرة ، وبركان « كراكاتو » الذي يندفع من قاع البحر . نأكل الشطائر ، ثم نعود . لا أكتب شيئاً . أقرأ بروست كاملاً للمرة الرابعة . إنه يثير اعجابي أكثر من السابق . لقد اكتشفت رساماً سوريالياً ، ونحن نخرج معه لتناول الطعام في المطاعم الصينية ، ونحتسي البيرة معاً . حتى أكثر الأمور غرابة وأكثرها حميمية تتحول إلى روتين . فكل يوم هو مثل غيره في هذه البلاد .

على كل حال ، عاد نيرودا إلى تشيلي عام **١٩٣٢** وبرفقته ماروكا ، بعد غياب دام خمس سنوات في المدارات الشرقية . إن

وضعه المهني ـ كما يُفهم من الفقرة المذكورة اعلاه ـ قد تحسن بشكل ملموس : فبعد أن أنهى « فترة الخطوبة » في السلك الدبلوماسي ، خولته مهمته الأخيرة في سنغافورة أن ينتقل إلى حياة أقل اضطراباً مما مر به حتى ذلك الحين . وخلال السنة التي امضاها في سنتياغو ، بعد عودته إليها ، توالت طبعات كتبه : فقد صحح ورتب ديوان « **عشرون قصيدة حب** . . . » بشكله النهائي ، وصدر في طبعتين في كل من تشيلي وبوينس ايرس : وقرر نشر « **رامي المقلاع المتحمس** »ـ بعد عشر سنوات كاملة تقريباً من كتابته ـ، ثم صدرت الطبعة الأولية من **اقامة في الأرض** . وبهذا المتاع ينتقل إلى بوينس ايرس ريثما يتم تعيينه كقنصل هناك ، في آب (اغسطس) **١٩٣٣** . ويبقى في مهمته في العاصمة الارجنتينية أقل من سنة . ولكن حياته تأخذ بالتحول هناك ، كمقدمة للفترة العظيمة والحاسمة التي سيحياها في اسبانيا . فمثقفو بوينس ايرس يستقبلونه بالود والتقدير ، ويقتحم نيرودا للمرة الأولى عالم النجاح الذي لن يفارقه بعدها . وتبتعد الأيام البوهيمية التي عاشها في سنتياغو وكذلك أيام الكآبة المدارية ، ويتأكد الشاعر من وجهة مصيره ووحدته . ويصبح اوليفيريو خيروندو ، وكونرادو نالي روسلو ، ونورا لانجي ، وبابلو روخاس باز ، وريكاردو موليناري ، ورااؤول غونثالث تونيون ، وامبارو موم ، هم الذين يشكلون دائرة اصدقائه المقربين ، فيحيا حياة بوهيمية مزينة بأناس موهوبين لا يخلون من قمة عبقرية ـ كما هو حال خيروندوـ . وفي يوم ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) يتعرف في بيت روخاس باز على فيدريكو غارسيا لوركا ، الذي كان يومها يقوم بجولة مظفرة في اميركا . وبعد تعيينه قنصلاً في برشلونة ، يبحر

نيرودا اخيراً إلى اسبانيا ، في الخامس من أيار (مايو) ١٩٣٤ ، برفقة ماروكا وهي حامل في شهرها الرابع . وخلال السنتين التاليتين لعودته من الشرق والسنة الأولى التي امضاها في اسبانيا ، يكتب قصائد **الاقامة الثانية** ، وهو الديوان الذي ظهرت طبعته الكاملة في مدريد في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٣٥ .

الحرب الأهلية الاسبانية تلوح في الأفق ، ومرحلة زخمة لا تتكرر ، تكاد تتبلور لتتحكم بشاعرية نيرودا .

* * *

ومع الصفحة الأخيرة من **الاقامة الثانية** تنتهي مرحلة لن تتكرر من الشعر النيرودي ، إذ ان **الاقامة الثالثة** (١٩٣٥ - ١٩٤٥) ، كما سنرى ، هو ديوان خالٍ من الوحدة . وكثمرة باهرة لنضوج هذه الشاعرية الخلاقة الجديدة سيظهر بعد خمس عشرة سنة النشيد الشامل .

ولكن الانتقال من مفهوم محدد للعالم ولحياته بالذات إلى مفهوم آخر ، لا بد وأنه بالنسبة لنيرودا كان شيئاً أكثر من مجرد خمسة عشر عاماً من حياته ، إنها رحلات ، نضالات ، محاضرات حاشدة ، علاقات غرامية ، نضال في السرية ، انعكاسات على الورق للنشيد في تاريخ العالم ، للشاعر كخازن لذاكرة البشر .

و - كضوء مركزي وحاسم - استقرت اسبانيا في قلبه .

اسبانيا في القلب

(١٩٣٤ ـ ١٩٣٩)

« ستسألون لماذا لا تحدثنا أشعاره
عن حلم الأوراق ،
عن البراكين العظيمة في موطن ميلاده ؟
تعالوا انظروا الدم في الشوارع » .

في كتابها « حيوات بابلو نيرودا » تروي مرغريتا اغييري عن اقتحام الشاعر لشبه الجزيرة (اسبانيا) هكذا : يقول رافائيل ألبيرتي أنه بعد عدة سنوات من المراسلة مع بابلو نيرودا ، وفي يوم طيب من أيام حزيران (يونيو) ١٩٣٤ ـ « في وقت لم أكن انتظره فيه ولم أكن أعرف شيئاً عنه منذ زمن » صعد نيرودا راكضاً ادراج بيته ، وقال له :

ـ أنا بابلو نيرودا . لقد وصلت للتو وحضرت لمصافحتك ـ ثم يتابع قائلاً ـ إن زوجتي تحت ، لا تفزع ولكنها عملاقة تقريباً .

هكذا وصل نيرودا إلى اسبانيا ، صاعداً بخطوات واسعة . . سعيداً ومتدفقاً .

إن الشاعر المبعوث كقنصل إلى برشلونة ، اتى مصمماً على الإقامة في مدريد ، حتى انه استأجر بيتاً في حي ارغويّيس بعد أقل من شهر من وصوله إلى اسبانيا . وفي مدريد أيضاً ستولد ابنته يوم ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) من هذا العام ، وفي جامعة المدينة سيقدمه غارسيا لوركا رسمياً في اوائل شهر كانون الأول (ديسمبر). وبعد ذلك بشهرين يتمكن من الحصول على أمر بنقله كقنصل إلى العاصمة الاسبانية بدلاً من برشلونة ، محققاً بذلك حلمه .

كانت حياته الزوجية من ماروكا هاغينار تمضي من سيّىء إلى أسوأ في عام ١٩٣٤ ، وهو عام حافل بعلاقات الشاعر الغرامية ؛ وقد كرس لعلاقتين منها كتابه **الغضبات والمشقات** ، الذي كتبه في ذلك الحين ولكنه لم ينشره إلا بعد مرور خمس سنوات ، عند عودته إلى تشيلي . وفي حفل أقيم في بيت مورلا لينيتش تعرف على ديليا دل كاريّل ـ التي ستصبح زوجته خلال الحقبة التالية ، وكانت واحداً من حبين كبيرين في حياته ـ فتهدأ عاصفته الغرامية . في الوقت ذاته كانت شعبيته في تصاعد ، وخصوصاً منذ التكريم الذي قدمه إليه شعراء اسبانيا بعد أقل من سنة على قدومه ؛ ففي نيسان (ابريل) ١٩٣٥ نشر ديوان **اقامة في الأرض**، مع مقدمة لاهبة وقع عليها كل من : البيرتي ، الكسندري ، ثيرنودا ، خيـراردو دييغو ، ليـون فيليبه ، غارسيا لوركا ، خورخي غيين ، بيدرو سالييناس ، وميغيل هيرناندث ، بالإضافة إلى آخرين . ومما قالوه في تلك المقدمة : **لقد بعثت تشيلي إلى اسبانيا بالشاعر الكبير بابلو نيرودا ، الذي ينتج بقدرته الخلاقة الجلية ؛ وبتملكه الكامل لزمام قدره الشعري ،**

أعمالاً تعتبر مثلاً يحتذى، من أجل شرف اللغة القشتالية . بعد خمس سنوات من رسالته إلى ياندي - التي طالب فيها بمكان هادىء ، وزواج برجوازي ، ومرتب ثابت ، مقنعاً نفسه باستحالة أن يهتم أحد اهتماماً حقيقياً بنشر قصائده - أصبح نيرودا علماً ، وموضع تقدير ، ومؤثراً في الحياة الأدبية : لدرجة أن أفضل أصوات اسبانيا الشعرية يكلفونه برئاسة تحرير مجلة الحصان الأخضر للشعر ، ويحتل ديوانه اقامة في الأرض مكانة مرموقة وسط اجماع من الثناء عليه ، بل إن القدر يحالفه ليجعل الشاعر ميغيل هيرنانديث في عداد تلاميذه ، وهو أعمق واسطع الشعراء الاسبان في هذا القرن . مما دفع مرافقته وكاتبة سيرته إلى القول : إنه النصر الأدبي العظيم . وروبين داريو فقط هو الذي احرز صدى كهذا في اسبانيا . إن مدريد احتفال ، والشاعر يحياه ملء يديه .

أنا وفيدريكو والبيرتي الذي كان يسكن في بيت قريب من بيتي ، في ملحق يطل على دغل ، البيت الذي كان يسمى « الدغل الضائع »، ومعنا النحات البيرتو ، وهو خباز من طليطلة كان اذ ذاك معلماً للنحت التجريدي، والتو لاغييري ، وبيرغامين والشاعر العظيم لويس ثرنودا ، وفيثنتي الكسندري ، شاعر ذو مدى غير محدود، والمهندس المعماري لويس لاكاسا ، نلتقي يومياً في مجموعة واحدة ، أو في عدة مجموعات ، في البيوت والمقاهي . كنا نمضي من شارع لاكاستيانا أو من مشرب البيرة في شارع البريد حتى نصل بيتي في ارغوييس . كنا نهبط من الطابق الثاني لاحدى الحافلات

الكبيرة التي كان يدعوها مواطني العظيم كوتابوس « سيارة الأطفاء »، ننزل في مجموعات صاخبة للأكل والشرب والغناء (. . .) في مدريد تلك ! كنت امضي مع ماروخا مايو ، الرسامة الجليقية ، عبر الاحياء السفلى بحثاً عن المحلات التي تبيع الحصر والحلفاء ، بحثاً عن ازقة صانعي البراميل والحبال ، وكل مواد اسبانيا الصلبة ، المواد التي تفتل قلبها وتجدله .

وصل نجم نيرودا في اسبانيا إلى أوجه في اواسط عام ١٩٣٦ ؛ ومنذ هذا التاريخ ، اتخذت الأمور اتجاهاً آخر ، مختلفاً بالنسبة للجميع .

بقي العدد السادس من « الحصان الأخضر » في شارع بيرياتو دون ترتيب ولا تخييط . كان عدداً مكرساً للشاعر خوليو هيريرا أي ريسيّغ ـ لوتريامونت الثاني لمونتفيديو ـ. والنصوص التي كتبها الشعراء الاسبان تكريماً له ، بقيت راقدة هناك بجمالها دون حَبَل ولا ولادة . كان المفروض أن تظهر المجلة في اليوم التاسع عشر من تموز (يوليو) ١٩٣٦ ، لكن الشارع امتلأ بالبارود في ذلك اليوم . جنرال مجهول ، يدعى فرانشيسكو فرانكو قد تمرد على الجمهورية في محميته بافريقيا .

قبل ذلك بثلاثة أيام ، كان فيدريكو غارسيا لوركا قد سافر إلى موطن ميلاده ، إلى غرناطة ، في الرحلة التي ستكون رحلته

الأخيرة . ويتذكر نيرودا بانهما اتفقا على حضور استعراض يؤديه مسخـان غريبان ملقبان بـ « سـاكن الكهوف المقنـع » و « خنّاق الحبشة » .

تخلف فيدريكو عن الموعد . كان قد راح ليلقي حتفه . لم نرَ بعضنا بعدها أبداً . موعده كان مع خنّـاقين آخـرين . وهكذا ، فإن حرب اسبانيا ، التي غيّرت مسار شعري ، بدأت بالنسبة لي باختفاء شاعر .

إن اغتيال فيدريكو ثم اعتقال ميغيل هيرنانديث ومـوته في المعتقل ـ وهما الشاعران اللذان جمعته بهما اواصر ود شديدة ـ يعتبران حدثين من أكبر الأحداث المؤلمة في حياة نيرودا ، وهو لن يتوقف عن ذكرهما والتحدث عن صداقته لهما عبر جميع الكتب التي اصدرها منذ ذلك الحين . ولكن يجب علينا ألاّ نبحث في هذه المؤثرات والأسباب الشخصية عن التغيير العملاق في الشعر النيرودي ؛ فمنذ عام ١٩٣٤ ـ إبان موجـة القمع الـوحشية ضـد عمال المنـاجم في استورياس ـ كان قد بدأ يميل بمشاعره نحو القضايا الشعبية ، ويبدأ بالحديث سريعاً في حصانه الاخضر ، عن « شعر بلا نقاء » . وفي اوائل عام ١٩٣٦ ، هاجمت عصابات فاشية ودمرت بيت رافائيل البيرتي ، الذي كان يقوم بجولة في اميركا ـ مبعوثاً من جمعية الاسعاف الأحمر ـ لطلب المساعدات قبل حلول الكارثة الوشيكة . وعندما رجع البيرتي من جولته ، بعد بدء الحرب الأهلية ، عُيِّن مسؤولاً عن مجلة **الافرهول الأزرق** ، وهي مجلة ادبية موجهة إلى خنادق القتال . وذهب نيرودا لزيارته حاملاً معه قصيدته « أغنية إلى

امهات جنود الميليشيا القتلى »، التي ضمها فيما بعد إلى مجموعته اسبانيا في القلب ، ويمكن التأكيد بأنها كانت قصيدته النضالية الأولى .

أنا لا أنسى مصابكن ،
أعرف ابناءكن
وإن اكن فخوراً بمماتهم،
فإنني أيضاً ، فخور بحياتهم .
ضحكاتهم

كانت تبرق في المصانع الصماء ،
وخطواتهم في « الميترو »
كانت ترن بجانبي كل يوم ،
وإلى جوار برتقال « ليفانتي »، وشِبَاك الجنوب ،
بجانب حبر المطابع ، وفوق اسمنت الابنية
رأيت قلوبهم تلتهب
بالنار والنشاط .

لقد نشر البيرتي هذه القصيدة مغفلة من التوقيع ، حتى لا يضر بالوضع الدبلوماسي لصديقه . ولكن حيطته كانت هباء : إذ ان نيرودا قد التزم بكل جوارحه ، وربط مصيره بمصير الجمهورية ، فقامت حكومة ارتورو اليساندري ، التشيلية المحافظة ، بتنحيته من منصبه الدبلوماسي .

في هذه الفترة بالذات ينفصل الشاعر عن زوجته ماريا انطونيتا

هاغينار ـ التي تسافر إلى هولندا برفقة ابنتهما ـ ويعيش مع ديليا دل كاريل . ويسافر إلى فلنسيا ثم إلى باريس ، حيث يصدر ـ بالتعاون مع نانسي كونارد ، التي يكرس لها صفحات رقيقة ومشرفة في مذكراته ـ المجلة المناضلة : « شعراء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني ». وفي شباط (فبراير) ١٩٣٧ ، يلقي محاضرته المؤثرة عن غارسيا لوركا وينظم ، مع لويس اراغون الدائم النشاط ، مؤتمر الكتّاب المعادين للفاشية ، الذي عقدت جلساته التحضيرية في فلنسيا ، وكان يفترض عقده في مدريد المحاصرة في تلك الأيام . « لم يخرج أبداً من باريس قطار مليء بالكتّاب مثل ذلك القطار »، هكذا يتذكر نيرودا ، مشيراً إلى قافلة المثقفين الخيالية المتوجهة إلى العاصمة الاسبانية في قطار كان في عرباته : ثيسر باييخو ، فيثنتي هو يدوبرو ، اندريه مارلو ، اوكتافيو باث ، رافائيل البيرتي ، تريستان تزارا ، جولين بندا ، راؤول غونثالث تونيون ، وعشرات آخرون من الكتّاب الايطاليين ، والانكليز ، والسوفييت . . . بالاضافة إلى نيرودا نفسه واراغون . إن الحرب الاسبانية ـ وهي دون شك ، الحدث الذي سال له أكبر قدر من الحبر في هذا القرن ـ قد جمعت حولها ومنذ بدايتها ، عدداً ضخماً من أهم الكتّاب .

في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٧ ، يعود نيرودا إلى تشيلي ، حيث ينشر اسبانيا في القلب . إن النجاح الذي لاقاه الكتاب كان نجاحاً صاعقاً ؛ ففي بضعة شهور تنفذ أربع طبعات متتالية منه . وفي خضم القتال في الجبهة الشرقية ، قريباً من « خيرونا »، ينصب مانويل ألتولاغيري مطبعة ميدان ، وينشر الطبعة المناضلة الشهيرة من اسبانيا في القلب .

لقد تعلم جنود الجبهة كيفية صف حروف الطباعة . ولكن الورق كان ينقصهم حينئذ . وجدوا طاحونة قديمة فقرروا صنعه هناك . فكان ما صنعوه خليطا عجيباً ، بين القنابل المتساقطة ، وسط المعركة . لقد كانوا يقذفون بكل شيء إلى المطحنة بدءاً من راية للعدو وحتى عباءة مدماة لجندي مغربي . على الرغم من هذه المواد الغريبة ، ومع الانعدام التام في الخبرة فقد خرج الورق بديعاً جداً . إن النسخ القليلة التي ما زالت محفوظة من هذا الكتاب تثير الدهشة لحروفها وطباعتها ذات الصناعة الغريبة . لقد رأيت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في واشنطن ، في مكتبة الكونغرس ، موضوعة وراء واجهة زجاجية كأحد الكتب النادرة جداً في عصرنا .

بعد فترة قصيرة من انجاز هذه الطبعة الخيالية ، بدأ انهيار الجمهورية يتسارع .

مع هذه الطوابير الراحلة إلى المنفى كان يمضي الجنود الاحياء من جيش الشرق ، وبينهم مانويل ألتو لاغيري والجنود الذين صنعوا الورق وطبعوا اسبانيا في القلب . إن كتابي هذا كان مفخرة لهؤلاء الرجال الذين عملوا في طباعة اشعاري وهم يتحدون الموت . عرفت أن كثيرين منهم آثروا حمل أكياس تحتوي النسخ المطبوعة على حمل أغذيتهم وملابسهم . والأكياس على اكتافهم انطلقوا بالمسيرة الطويلة نحو فرنسا .

لقد تعرض هذا الطابور الهائل الذي يسير إلى المنفى

لغارات الطائرات مئات من المرات . سقط عدد كبير من الجنود وتبعثرت الكتب في الدروب . وتابع آخرون الهروب الذي لا نهاية له . وهناك وراء الحدود عاملوا الاسبان الذين وصلوا إلى المنفى معاملة جلفة قاسية . وقُـدمت النسخ الاخيرة من ذلك الكتاب قرباناً إلى المحرقة ، ذلك الكتاب الملتهب الذي ولد ومات في خضم المعركة .

إن اميركا الجنوبية ستصبح بالنسبة للاسبان الملجأ والمأوى الذي رفضت فرنسا منحهم إياه . فقد حركت الارجنتين ، والارغواي ، وتشيلي . . . جميع امكانياتها لاستقبال اللاجئين . وقابل نيرودا الرئيس التشيلي اغيره ثيردا ، الذي انتُخب رئيساً لتوه ، لينقل إليه قلقه حول اسبانيا ، فعينه هذا قنصلاً لشؤون المهاجرين ـ وهو منصب ابتكره في تلك اللحظة ـ وجعل مقره في باريس . لقد شرح نيرودا للرئيس اغيره ثيردا بفطنة أن المهمة معقدة ، وإن المهاجرين يعدون بالآلاف . ويجيبه الرئيس : ـ احضر لي اسباناً ، سنوفر متسعاً للجميع . أحضر لي صيادين ، احضر لي باسكاويين ، قشتاليين ، اكستريما دورين . . .

بهذا التصريح السخي ، يعود نيرودا إلى اوروبا ـ بالرغم من أن أحدى ساقيه كانت مغطاة بالجبس ، بعد عملية اجريت له ـ. ويبقى في باريس منذ آذار (مارس) ١٩٣٩ حتى نهايات ذلك العام ، فيشهد انهيار الجمهورية الاسبانية وبداية الحرب العالمية الثانية . وبعد عمل دؤوب ، ومواجهة الف صعوبة ، يتمكن أخيراً من استئجار سفينة ـ الوينبيغ ـ، التي تصل في أواخر السنة إلى ميناء

بالبارايسو في تشيلي ، مزدحمة باللاجئين الاسبان . وفي ذكريات ايسلا نغرا ، يتذكر الشاعر مفخرة ذلك الابحار الحاشد :

سفينتي كانت تنتظر
باسمها الصاخب
« وينبيغ »

ملتصقة برصيف الحديقة المشتعلة ،
بالاعناب القديمة الفظة في اوروبا .
ولكن معشري الاسبان لا يأتون
من فرساي ،
من حفلات الرقص المفضضة ،
من سجاجيد الدَيسَم القديمة ،
من الكؤوس التي تزغرد
بالنبيذ ،
لا ، ليسوا آتين من هناك ،
لا ، ليسوا من هناك .

ويرجع نيرودا معهم إلى اميركا ، في مفرق الاربعينات : وسيكون هذا العقد هو العقد الأكثر اميركية في حياة الشاعر ، وفي نهايته تماماً يرتقي قمة النشيد الشامل .

* * *

في عام ١٩٤٧ ، تنشر دار النشر لوسادا في بوينس ايرس ديوانه اقامة ثالثة (١٩٣٥ ـ ١٩٤٥)، وهو يضم نتاج نيرودا في الفترة ما

بين اصداره **اقامة في الأرض** (الجزأين الأول والثاني) والنشيد الشامل . ويشكل انعكاساً امينا للسنوات التي مرت ما بين هذين الكتابين العظيمين ، **فالاقامة الثالثة** هو من أقل كتب نيرودا وحدة ، بل إنه مليء بنقاط الضعف فيما يتعلق بمفهومه الشعري للعالم . على الرغم من بعض اللمحات اللامعة ـ فشاعر كبير لا يمكن له أبداً أن يخطىء بكل شيء ، مهما كان شاذاً ـ إن **الاقامة الثالثة** هو كتاب باهت في قسمه الأول (« الغارقة السماوية ») الذي يحاول اقتفاء أثر شقيقيه السابقين ، ولكننا نلمس فيه التحضير للاشعار المناضلة والنفس العنيد الذي سيكتمل في النشيد الشامل .

ووسط هذا التردد تظهر قصائد العشق المتشامخ والكلمة العنيفة في ديوان **الغضبات والمشقات** ، الذي كُتب عام ١٩٣٤ ، ونُشر ككتاب مستقل عام ١٩٣٩ ، لدى عودة الشاعر إلى تشيلي . إنه قصيدة حب وكآبة طويلة ، **فالغضبات** كتاب معاصر لديوان **الاقامة الثانية** ، يتنفس من ذات النفس البارع والمحزون الذي تنفست منه قصائد « ليس ثمة نسيان » و « وكينغ اروند » .

بعد كل الشاعرية المتقنة التي مارسها نيرودا في الفترة ما بين العشرين والثلاثين من عمره ، أتت **الاقامة الثالثة** لتغير بعنف وبحسم من لهجته : إنه الحدث الاسباني .

فكتاب المعركة **اسبانيا في القلب** ـ الذي يبتدىء بقصيدة مباشرة عنوانها « اجتماع تحت الرايات »ـ هو اللقاء السافر للشاعر مع احشاء العالم . فهو ما يزال قلقاً في شاعريته الجديدة ، وفي مناسبات قليلة فقط يتمكن من الارتفاع إلى مستوى اعماله السابقة

(« سأشرح بعض الأمور »، « منظر بعد المعركة ») ولكنه في اغلب القصائد الأخرى يبقى أسير الملصق الدعائي (« الجنرال فرانكو إلى الجحيم »)، أو أنه ينحدر إلى التبسيط التعدادي (في قصيدة « كيف كانت اسبانيا » ينظم ترتيلة من /٥٦/ بيتاً تقتصر على تعداد اسماء أكثر من مئة قرية اسبانية).

الجزء الخامس والأخير من **الاقامة الثالثة** كُتب خلال سنوات الحرب العالمية ، وهو شديد الاتصال بتصريح أدلى به الشاعر لصحيفة **الـ سيغلو** ، الصادرة في سنتياغو أواخر شهر شباط (فبراير) ١٩٤٣ .

> إن كل ابداع لا يوظف لخدمة الحرية في أيام التهديد الشامل هذه ، ما هو إلاّ خيانة . فكل كتاب يجب أن يكون رصاصة ضد المحور، وكل لوحة يجب أن تكون دعاية ؛ وكل بحث علمي يجب أن يكون أداة وسلاحاً للنصر .

النشيد الشامل

(١٩٣٨ - ١٩٥٠)

« اصعد معي ، أيها الحب الاميركي » .

ليس النشيد الشامل هو أكثر أعمال نيرودا شمولاً وطموحاً فقط ، بل ، ربما هو، أكبر عمل منهجي في تاريخ الشعر الناطق بالاسبانية . فقد كُتبت صفحاته على امتداد أكثر من عشر سنوات ، وهي موزعة في خمسة عشر فصلاً مقسمة إلى ٢٤٩ نشيداً ، ومجموع أبيات الكتاب يتجاوز الثلاثة عشر ألف بيت من الشعر .

كانت فكرة الشاعر في البداية كتابة النشيد الشامل لتشيلي ، (الذي أصبح فيها بعد الفصل السابع من النشيد الشامل) . وتستجيب هذه القصيدة الضخمة أكثر من أي عمل آخر من أعمال الشاعر لغايته في تأريخ شامل ، وهي الغاية التي كانت تراود ذهن نيرودا منذ بداية التنفيذ ، والتي سيعود لمحاولتها (بأسلوب آخر) في

كتب الاغنيات (Odas) المختلفة ، وفي ذكريات ايسلا نغرا . وعندما نشر هذا الكتاب الأخير ، قام نيرودا بمراجعة لنتاجه حتى ذلك الحين ، وبإبراز الدوافع التي شجعته في انجاز كل مؤلف من مؤلفاته الكثيرة .

عندما كنت أعيش في العزلة وبعيداً عن الناس ، وبالاستناد إلى هدف ابراز وحدة شاملة عظيمة للعالم الذي أريد التعبير عنه ، كتبت كتابي الأكثر حماسة والأكثر اتساعاً: **النشيد الشامل** . وقد كان هذا الكتاب تتويجاً لمحاولتي الطموحة . إنه فسيح مثل قطعة كبيرة من الزمن وبه غموض ووضوح في الوقت ذاته ، لاني رميت إلى الاحاطة بالفراغ (espacio) الكبير الذي تتحرك فيه ، وتنمو ، وتعمل ، وتضمحل الحيوات والشعوب (. . .) ورغم استخدامي لتقنيات عديدة في هذا النشيد ، ابتداء من الكلاسيكية القديمة وحتى الاشعار الشعبية ، فإني أريد قول بضع كلمات حول الهدف الذي توخيته من أحد أساليبي ، وأعني به المباشرة التي يعيبني بها الكثيرون وكأن هذا الاسلوب يشوه أو يدنس الكتاب . إن المباشرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفهومي لـالتأريخ . فالشاعر يجب أن يكون، جزئياً ، مؤرخاً لعصره . والتأريخ يجب الا يكون ماهية ، ولا نقاء ، ولا تثقيفاً ، وإنما يجب أن يكون وعراً ، معفراً ، ماطراً ، يومياً . . يجب أن يتضمن البصمات البائسة للأيام التي تكر ، ويحمل ضيق وحسرات الانسان .

بامكاننا الادلاء بأي رأي حول النشيد، باستثناء القول بأن نيرودا

لم يتوصل إلى انجاز الغرض الذي كتب العمل من أجله . إن النشيد بلا شك هو تأريخ لأميركا ، ولكن هذا الوصف مقتضب وغير كافٍ للاحاطة بكل المجالات التي يتحرك فيها هذا الكتاب (التاريخ ، الجغرافيا ، الفلكلور ، مملكة النبات ، الانتربولوجيا . . .)، أو بغناه بالاصوات والاوزان والإيقاعات (فالوتيرة التنبؤية تتناوب مع أنغام «الشطار» والرومنثير مع الغضب، والأمل مع الغنائية المحلقة ؛ والجزالة اللفظية الاسكندرانية تتناوب مع الموال الشعبي ، وهذا بدوره مع البحور مكسورة الوزن ؛ والنغم الترتيلي يدع مكاناً للمقطعات الصارمة ، وبيت الشعر الحر للقافية الصارمة). من كل هذه الأوزان والأصوات والايقاعات شيد الشاعر ، بتناسق تام ، الهندسة السيمفونية لهذا العمل البارع .

وبما أن الأمر كذلك ، فإني أجد نفسي مضطراً للتفصيل في الحديث عن النشيد الشامل وتناوله فصلاً فصلاً، محاولاً ما أمكن وضع ملخص قريب من عظمته الحاسمة .

١ . مصباح الأرض :

يبدأ الكتاب بابتهال إلى عالم ما قبل التاريخ « أرضي التي بلا اسم ،، بلا اميركا »، إلى الاصول الجيولوجية ، إلى الغابات التي تسكنها العصافير ، وسلاسل الجبال اللانهائية ، إلى أصوات الماء التي سُميت فيما بعد « اورنيوكو »، و« الامازون »، و« تيكيندااما »، و« بيو- بيو ». . « لا أحد . أنْظُر إلى الحجارة / أنْظُر إلى حجارة اراوكو ». وفي نهاية هذا الفصل فقط تبدأ القبائل بسكنى هذه الأرض ، فتأتي قبائل : راهومارا ، واثتيكا ، وكاريبب ، والمايا ،

والانكا ، والاروكانيون . . .

قبل لمة الشَعر المستعار والسترة
كانت الأنهار ، الأنهار الشريانية :
وكانت سلاسل الجبال ، وبين تموجاتها المخططة
كان الكندور والثلج يبدوان دون حراك :
كانت الرطوبة ، الأدغال ، الرعد
جميعها لا تزال دون أسماء
وكانت السهوب الكونية .

« حب اميركا (١٤٠٠)»

أمازون ، ياعاصمة ايقاعات الماء ،
إيها الأب البطريرك
أنت السرمدية السرية
للاخصاب ،
تسقط إليك انهارٌ كالطيور ،
تغطيك مآبر لها لون الحريق ،
والجذوع العظيمة الميتة تضمخك بالشذى ،
والقمر يعجز عن مراقبتك أو قياسك .

« الانهار تنضم »

٢ ـ مرتفعات ماتشوبيتشو :

في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٣ ، وبينما كان في طريق عودته إلى سنتياغو بعد مهمة دبلوماسية في المكسيك ، زار نيرودا البيرو

ودُعي هناك لزيارة أطلال ماتشوبيتشو ، وهي مدينة قديمة تعود إلى ما قبل سيطرة هنود الانكا على البيرو ، وقد شيدت على ارتفاع ٢٤٠٠ متر ، في وسط الجبال ، وتطل على الاخدود الذي يمر منه نهر اوروبامبا . وقد اكتشفت اطلالها سنة ١٩١٢ على يد عالم الآثار هيراسو بينجهام ، ومنذ ذلك الحين تحولت إلى رمز يدلل على القِدم السحيق للثقافة الأميركية . وكان الغزاة الاسبان يجهلون وجودها ، وربما لم تكن لدى هنود الانكا انفسهم سوى مجرد قصة خرافية عنها . وقد كتب نيرودا ، متأثراً بجلال تلك الاطلال ـ بعد سنتين من زيارته ـ قصيدة طويلة من اثني عشر نشيداً ، هي إحدى القمم المطلقة في نتاجه الشعري . فكل العمق الميتافيزيقي الذي في إقامة يظهر من جديد في هذه القصيدة ، وقد تغلغل تماماً في الشاعرية الجديدة للمؤلف ، وعظمة هذه القصيدة أيضاً نجدها في رفعتها على مستوى البناء الشعري ، وفي هذا التدرج الدرامي الرائع الذي يعطي القصيدة تطورها . ولا شك أن هذا الفصل هو واحد من أجمل فصول النشيد الشامل .

I

من الهواء إلى الهواء ، كشبكة فارغة
رحتُ أصلُ بين الدروب والسّديم ، وأودع
في ولاية الخريف ، قطع النقد
المتدلية من الأوراق .

(أيام بريق حيّ
في عراء الاجساد : فولاذ متحوّل

في صمت الأكاسيد :
ليالٍ تحلل نسيجها حتى آخر حبة طحين :
خيوط غَزّلٍ مغدورة من وطن الزفاف).

ثمة من انتظرني بين الكمنجات
فوجد عالماً مثل برج مدفون
يغرس نابضه أعمق من كل
الوريقات ذات اللون الكبريتي القاتم .
أكثر عمقاً ، ما بين الذهب الجيولوجي ،
كسيف تكتنفه النيازك ،
غرست يدي المضطربة والعذبة
في أعمق ما هو تناسلي من الأرض .

ووضعت جبهتي بين الأمواج العميقة ،
ونزلتُ مثل قطرة ما بين السلام الكبريتي ،
و، كأعمى ، رجعتُ إلى الياسمين
إلى الربيع البشري المستَهلَك

VIII

اصعد معي أيها الحب الأميركي .
قبّل معي الحجارة السرّية .
فضة نهر اروبامبا الغزيرة
تجعل ذرات الطّلْع تتطاير إلى كؤوسها الصفراء .

X

أيها الحجر الجاثم في الحجر ، أين هو الانسان ؟
أيها الهواء المتداخل في الهواء ، أين هو الانسان ؟
أيها الزمن المتداخل في الزمن ، أين هو الانسان ؟
أين النثار المحطم ،
نثار الانسان الذي لم يكتمل خلقه ، نثار النسر الأجوف ،
أهو في دروبنا اليوم ، وفي آثار الأقدام ،
وفي اوراق الخريف الميت
من يعذّب الروح حتى الممات ؟
أين اليد الفقيرة ، والقدم ، والحياة البائسة . . .
أين أيام النور المتحللة
بكَ ، مثل حبات المطر المتساقطة
فوق رايات الاحتفال ،
حبات المطر التي أعطت ، نبتة بعد نبتة ، للفم الفارغ
من طعامها القاتم ؟
أيها الجوع ، يا مرجان الانسان ،
أيها الجوع ، يا نبتة سرّية ، يا جذر الحطابين ،
أيها الجوع ، أصَعَدَ شعاعك من بين الماء
إلى هذه الأبراج السَخيّة العالية ؟

XII

اصعد يا أخي ، لنوُلدمعاً .

مدّ يدك من أعماق

بؤرة الملك المبدّد .
إنك لن تعود من أعماق الصخور .
لن تعود من الزمن تحت الأرضي .
ولن يعود صوتك المتحجر .
ولن تعود عيناك المثقوبتان .

. . . .

أنا آت لأنطق بفمكم الميت .
فوحّدوا، عبر الأرض ،
جميع الشفاه الصامتة النازفة
ومن الاعماق حدثوني عن كل هذا الليل الطويل ،
كما لو كنت مشدوداً إليكم ،
حدثوني عن كل شيء ، عن قيودكم :
سلسلة فسلسلة ،
حلقة فحلقة ، وخطوة فخطوة ،
واشحذوا المُدى التي بها تحتفظون ،
واغمدوها في صدري وفي يدي ،
كنهر من النمور المدفونة ،
ودعوني أنتحب لساعات ، لأيام ، لأعوام ،
لاجيال عمياء ، وقرون كوكبية .
امنحوني الصمت ، والماء ، والأمل .
امنحوني النضال ، والحديد ، والبراكين ،
والتصقوا بجسدي وكأنه قطعة مغنطيس .

هلموا إلى عروقي وفمي .
وانطقوا بكلماتي ودمي .

٣ ـ الغزاة :

الفصل الثالث من الكتاب هو ادانة قاسية للهمجية التي احتفل بها الغزاة الاسبان ، للسلب والدناءة التي مارسها قادتهم العسكريون ، لحماقة وتعصب رجال الدين : « رفع القسّ ذراعه ، / واحرق الكتب في الساحة / باسم ربه الصغير». ليس هذا فحسب ، وإنما نرى الشاعر يحس أيضاً بعظمة اولئك الرجال الافظاظ الذين لا يمكن تصوُّرهم من وجهة نظرنا الانسانية ، كما يفعل في قصيدة « تحية إلى بالبوا » .

أيها المكتشف ،
إن البحر الفسيح ، وزبدي ،
خفقان القمر ، وامبراطورية الماء ،
تكلّمك بفمي عَقِبَ قرون .
كمالُكَ وصل قبل الموت .
رفعتَ التعب حتى السماء ،
ومن ليل الأشجار القاسي
قادكَ العرقُ حتىٰ شاطىء
أعمق البحار ، حتى المحيط الكبير .

٤ ـ المحررون :

إنه أكثر فصول النشيد الشامل اظهاراً للتاريخ ، وأحد أطول

الفصول الخمسة عشر التي تشكل العمل . فابتداء من الهنود الكاثكيين الذين ـ مثل كواوتيموك أو لاوتارو ـ قاوموا الغزو الاسباني في القرن السادس عشر ، وحتى المحاربين والقادة العماليين في القرن العشرين ـ زاباتا ، ساندنيو ، ريكابارين ، برستيس ـ، مروراً بمن أُطلق عليهم اسم « آباء الوطن »، ـ أبطال حروب الاستقلال ، مثل : ميراندا ، وبوليفار، وسان مارتين ، واوهيجينس ـ، يقوم نيرودا بتمجيدٍ للدعوات والحركات التحررية في اميركا خلال اربعمائة سنة ، كما يتعرض إلى قدرها المحكوم بالخضوع ويتابع تبدلات الاسياد .

وهذا الفصل غني أيضاً بتنوع رائع في الايقاعات ، فهو يستطيع أن يمازج بين انغام الانشاء الكلاسيكي العالي كما في قصيدة « خوسيه ميغيل كاريرا »، وينتقل منها إلى الرتابة الشعبية كما في اهزوجة « مانويل رودريغيث ».

٥ ـ الرمل المغدور

وكنشيد معاكس للفصل السابق ، يتعرض هذا الفصل للدكتاتوريين والطغاة الاميركيين ، خلال أكثر بقليل من مئة سنة ، وهو الزمن الذي كان قد انقضى على الاستقلال . وفي هذا الفصل ملحق خاص مكرس إلى غونثالث بيديلا « خائن تشيلي »، الذي وصل إلى السلطة عام ١٩٤٦ بدعم من القوى الشعبية، والذي انقلب تماماً على برنامجه بعد وصوله إلى الرئاسة . وفقد نيرودا ـ الذي كان مسؤولاً عن الدعاية في حملته الانتخابية ـ بعد ذلك حصانته

البرلمانية ليتحول إلى أكثر معارضيه قسوة. فعانى من الملاحقة وامضى اربعة عشر شهراً في السرّية ـ للمرة الأولى والوحيدة في حياته! لينجو من الوقوع في المعتقل ؛ وفي فترة السرّية هذه بالذات، انهى النشيد الشامل.

٦ ـ اميركا ، لا أدعو باسمك باطلاً :

فصل قصير ، على شكل معترضة ما بين الثلثين الأول والثاني من مخطط العمل ، وهو مؤلف من ١٨ قصيدة قصيرة مختلفة المواضيع ، والجو العام المسيطر عليها هو تضامن الشاعر مع المضطهدين والمنبوذين في الأرض .

٧ ـ النشيد الشامل لتشيلي :

مؤلف من سبعة عشر مقطعاً تلخص المخطط الأصلي الذي وضعه الشاعر عام ١٩٣٨ : رحلة في التاريخ ، بين الناس ، الحجارة ، الأزهار ، فنون بلده التقليدية ، وببناء انسيابي للغاية ، يربط تقريباً بين موضوع وآخر دون انقطاعات مفاجئة جافة أو فجوات .

أيها الوطن ، يا وطني ، أُعيد إليك الدماء .
ولكني أطلب منك ، كما يطلب الطفل من أمه
وهو مفعم بالبكاء .

هذه القيثارة استقبل الكفيفة
وهذه الجبهة التائهة .
خرجتُ بحثاً عن ابناء لك في الأرض ،

خرجتُ لأرعى شهداء باسمك الثلجي ،
خرجتُ لأشيد بيتاً من أخشابك النقية ،
خرجتُ لأحمل نجمك إلى الأبطال الجرحى .

والآن ، أريد أن أنام في جَوْهَرك .
فأعطني ليلك الواضح ذي الأوتار النفوذة ،
ليلك الثلجي ، قامتك النجمية .

« نشيد وعودة (١٩٣٩) »

٨ ـ الأرض تسمى خوان :

هذا فصل مؤلف من سبع عشرة قصيدة ، خمس عشرة منها قصص عمال، ومزارعين ، وحرفيين مروية بصيغة الحاضر المتكلم على لسان أبطالها ، على طريقة إدغارلي ماستيرس في «Spoon River Anthology» . إن جوهر هذه الحيوات البائسة ، والاستغلال الذي عانته ، وفشلها ، هو تحية مؤثرة من الشاعر إلى « خوان » جميع الأجيال ، هذا الذي كان في كل لحظة « وراء المحررين ».

٩ ـ فليستيقظ الحطاب :

فصل سياسي . وهو أغنية حب وتحذير للولايات المتحدة الاميركية الخارجة لتوها منتصرة من الحرب العالمية الثانية . يستحضر بها نيرودا ظلال جواميس « البوفالو »، وحرية السهول الفسيحة ، وكلمات ويتمان وميلفيل ، وأحلام ابراهام لينكولن المعادية للرق (ولينكولن هو الحطاب المقصود في العنوان). وفي نهاية رائعة ، وبأبيات قصيرة ، يبشر بالاخوية العالمية ، ببساطة صعبة كما في

ديوانه « شاذ ». يقول الشاعر :

لا أريد أن يفكر أحد بي
لنفكر بالأرض كلها ،
ونحن ننقر بحب على الطاولة .
لا أريد أن تعود الدماء من جديد
لتلطخ الخبز ، واللوبياء ،
والموسيقى .
أريد أن يأتي معي عامل المناجم،
والطفلة ، والمحامي ، والبحار ،
وصانع الدُمى ،
لندخل معاً إلى السينما ونخرج
لنشرب أشد النبيذ احمراراً .
أنا لست آت لأحلّ أية قضية .
لقد أتيت هنا لأغني
ولتغنوا معي .

١٠ ـ الطريد :

بعد رفع الحصانة البرلمانية عنه ـ كان قد انتخب عام **١٩٤٥** عضواً في كونغرس الجمهورية عن منطقتي تاراباكا وانتوفاغاستا ـ تعرض نيرودا لمحاكمة سياسية . فانتقل إلى السرّية . وقد جال طوال سنة عبر تشيلي ، التجأ خلالها إلى بيوت عديدة كانت تقدم له المأوى ، وكان اثناء ذلك يكتب النشيد الشامل ، إلى أن تمكن من اجتياز سلسلة جبال الانديز من طرفها الجنوبي ، على متن بغلة ،

ووصل إلى الارجنتين في شباط (فبراير) **١٩٤٩** ، متنكراً وبشارب كثيف يجعله غير معروف . وكل ما كان يحمله معه هو المخطوطة الاصلية للنشيد . وكان كتابه ـ المتخفي مثله ـ يحمل عنواناً مزيفاً : **ضحكات ودمعات** ، ويقبع في حقيبة تحمل اسم بينيغنو اسبينوتا . وهذه هي التجربة التي يقصها في الفصل العاشر .

إلى الجميع ، إلى الجميع ،

إلى كل الذين لا أعرفهم ، إلى كل اولئك
الذين لم يسمعوا باسمي قط ،
إلى الذين يعيشون على ضفاف انهارنا الطويلة ،
وعلى سفوح البراكين ، وفي ظل
النحاس الملتهب ،
إلى الصيادين والفلاحين ،
إلى الهنود الزرق المقيمين على شواطىء
البحيرات المتألقة كالبلّور ،
إلى الاسكافيّ الذي يتساءل الآن
وهو يخيط الجلد بأيد قديمة ،
إليك أنت ، يا من انتظرتني دون أن تعرفني ،
إليكم جميعاً انتمي ، وبكم أعترف ، ولكم أغني .

١١ ـ ازهار بونيتاكي :

بهذا الفصل يبدأ الثلث الأخير من العمل ، وموضوعه هو سرد وقائع الحملة الانتخابية التي قام بها نيرودا في شمال

تشيلي، والتي انتخب بعدها عضواً في مجلس الشيوخ. إنها حملة انتخابية فريدة من نوعها ـ عمادها الأساسي الشعر والاتصال الشخصي والمباشر بالفلاحين ـ وقد كانت هذه التجربة حاسمة في حياة نيرودا، وأكدت له حقيقة المنابع التي اختارها لشعره.

١٢ ـ انهار الغناء :

ميغيل اوتيرو سيلفا، رفائيل البيرتي، غونثالث كاربالهو، سيلفيستري ريفويلتاس، وميغيل هيرنانديث، هؤلاء الأخوة الشعراء هم «أنهار الغناء»، ولهم يكرس نيرودا هذا الفصل المنظوم بموسيقى بطيئة متخذة شكل الاتصال الرسائلي:

أنت تعلم يا بني ، كل ما لم اعلمه ، وأنت تعرف
فإنك كنت لي ، في كل القصائد ، كنت اللهب الأزرق .
واليوم أضع وجهي على التراب لأصغي إليك ،
لأسمعك : دماً ، موسيقى ، وشهداً محتضراً .

لم أرَ سلالة أكثر تألقاً من سلالتك ،
ولا جذوراً أكثر صلابة ، ولا حتى يدي جندي ،
ولم أرَ شيئاً ينبض بالحياة أكثر من قلبك
الذي احرق ذاته في ارجوان رايتي .

« إلى ميغيل هيرناندث ، القتيل في سجون اسبانيا »

١٣ ـ كورال سنة جديدة للوطن الذي في الدياجير :

هذا الفصل حسب التسلسل التاريخي هو آخر فصول النشيد ،

وقد كُتب عندما كان الشاعر يتأهب للبدء في حياة نفي لا يدري كم سيدوم . ويضم هذا الفصل ، مثله كمثل سلسلة الجبال التي يلهج بذكرها ، سفحين : في احدهما الهجاء ، وعدم التواني عن تكرير الادانة للدكتاتور غونثالث بيديلا ؛ وفي السفح الآخر ، السفح الرائق الرخيم ، يؤكد نيرودا ، بإصرار أكبر من كل ما تقدم ، على وطنيته كتشيلي ، وحبه الذي لا سبيل للتخلي عنه للناس والأشياء في بلده .

سنة سعيدة أيها التشيليون ، للوطن الذي في الدياجير ،
سنة سعيدة للجميع ، لكل واحد منكم ما عدا واحد ،
اننا قليلو العدد ، سنة سعيدة ، يا أبناء موطني ، يا اخوتي ،
رجالاً ، نساء ، اطفالاً ،
فصوتي يطير اليوم إلى تشيلي ، إليكم ،
ويضرب مثل عصفور اعمى على نافذتك ،
ويناديك من بعيد ،
يا موطني ، . . . . .

« تحية (١٩٤٩) »

١٤ ـ المحيط العظيم :

العلاقة الحميمة القديمة لنيرودا بجنوب الباسفيك تتبدى هنا ، للمرة الأولى في اشعاره ، بكل بريقها : اعادة بناء الأسطورة حول جزيرة رابا ـ نوي السحرية (جزيرة باسكوا) ، الحوار مع الأعماق السحيقة ، القصائد المكرسة للطيور البحرية أو لسكان الشواطىء ، وحتى تلك الدّرة الصغيرة المنظومة بعنوان « رخوية غونغورية » (التي

كتبها عالم الرخويات العظيم : نيرودا)؛ والفصل بكامله يعكس غنى مشهدياً ، وحشياً ، يضعه خارج التاريخ واحداثه ، ويمنحه نوعاً من الثبات الذي ترسخه إلى حد كبير الأوزان الفسيحة والفخمة التي يستخدمها الشاعر . وكأن نيرودا ، وهو يقترب من اختتام عمله بفصل « عن المؤلف » ، يريد أن يعود إلى البهاء الأصيل ـ في الجانب البحري هذه المرة ـ، إلى زمن الأصل الذي سبق الحضارة والذي افتتح به سيمفونيته في الفصل الأول .

١٥ ـ أنا هذا :

للمرة الأولى يستعرض نيرودا حياته في عمل من اعماله ـ سيعود إلى هذا فيما بعد ، حتى ينتهي إلى تصفية حساباته مع نفسه تماماً في ذكريات إيسلا نغرا ـ مشيراً إلى النقاط المركزية في سيرة حياته : علاقته الحميمة بمنطقة لافرونتيرا (« طفولتي هي أحذية مبللة ، جذوع مهشمة / ملقاة في الغابة ، تلتهمها النباتات المتسلقة »)، حبيبته في تيموكو (« بعض الضفائر فقط ترتفع حركتها / نحو عزلتي مثلما ترتفع شعلة سوداء »)، البيت ، الأب ، الرحلة الأولى إلى سنتياغو ، الحبيبة ساكنة الحي الشعبي (« آه ، أنتِ أكثر طلاوة ، أكثر اتصالاً / من الحلاوة ، أيتها الحبيبة الجسدية »)، الرحلة إلى الشرق ، الحرب الاسبانية ، لقاء الحب من خلال علاقته بديليا دل كاريل ، اقامته المؤقتة في المكسيك وعودته إلى تشيلي ، اكتشافه النهائي للأشياء البسيطة والنقية على الأرض (« أريد أن آكل بصلاً ، أحضر لي من السوق / واحدة ، كرة منها مترعة بالثلج البلّوري ») ويمهد للخطوة التالية في شعره على طريق دواوين

الاغنيات ـ **Odas**، واعتناقه العقيدة الشيوعية . في المحاسن والمساوىء ، وأمام المعجبين والاعداء ، يقف نيرودا هنا منتصباً بكل قامته ؛ لينهي كتابه الرحب ، واضعاً أمام الجميع ملامح هويته .

لست أدري ، حبيبتي ، ما إذا كان سيتاح لي الوقت والمكان
لأرسم بكلماتي ، مرة أخرى ، ظلك الرقيق
الممتد على صفحاتي ، يا زوجتي :
إنها لقاسية ومشعة هذه الأيام ،
نأخذ منها العذوبة
معجونة بالرموش والأشواك .
ما عدت أعرف بدايتك :
لقد كنتِ تأتين قبل الحب ،
مع كل ماهيات القدر ،
وقبلك ، كانت العزلة للكِ ،
ربما كانت هي شَعرك النائم .
واليوم ، أكاد اسميكِ كأس حبي ،
عنوان أيامي ، أيتها المعبودة ،
وتحتلين أنتِ في الفضاء ، كما النهار ،
نور الكون كله .

« الحب »

ليهتم غبري بمدافن العظام الميتة . . .
فالدنيا
لها لون تفاحة عارية : الانهار

تجرف فيضاً من الأوراق البَرّيّة
وفي كل مكان تحيا روساريا الجميلة وخوان الرفيق . . .

. . . .

« الحياة »

اتنازل للنقابات
نقابات عمال النحاس ، والفحم ، والنيترات
عن بيتي الذي بجانب بحر ايسلا نغرا .
أريد أن يستريح هناك أبناء وطني المنبوذين ،
وطني المسلوب بالفؤوس والخونة ،
المتخبط في دمه المقدس ،
المستنزف في أسمال بركانية .

هذا هو بيتي يا أخي ،
فادخل إلى عالم الزهرة البحرية والحجر النجميّ
الذي شيدته مناضلاً في فقري .
ها هنا وُلد صوت نافذتي
كما في قوقعة متنامية
ثم رسّخ امتداداته
في جغرافيتي المضطربة .

. . . .

« شهادة (١) »

هكذا ينتهي هذا الكتاب ،

وهنا أترك النشيد الشامل ناجزاً
في ظل المطاردة ، ومغنياً
تحت اجنحة وطني السرية .
في اليوم الخامس من شباط ، من هذه السنة ، سنة ألف
وتسعمائة وتسع واربعون ، في تشيلي ، في « غودومار دي
تشينه »، قبل شهور قليلة من بلوغي الخامسة والأربعين .

« هنا أنتهي »

* * *

لقد استقرت فكرة النشيد الشامل لتشيلي في ذهن نيرودا عام ١٩٣٨ ، عند عودته إلى موطنه بعد السنوات الخمس التي امضاها في اسبانيا . وفي هذه السنة بالذات يتوفى والده ، ثم تتوفى زوج أبيه بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام ، فيعود إلى تيموكو ، العودة المؤثرة التي يسجل الشاعر ذكراها في كأس الدم : فبعد الانهاك في السفر والنضال يشعر نيرودا بنداء الجنوب ، نداء الغابة والاقيانوس ، نداء كل ما هو تشيلي . فيأخذ بالتأهب ، ويشتري بيته في ايسلا نغرا ، الذي كان في ذلك الحين بيتاً نائياً بلا نور ولا ماء للشرب ، على بعد اربعين كليومتراً إلى الجنوب من مدينة بالبارايسو . ويفكر بالاقامة هناك لينظم كتابه . ولكن احداث حياته المرتبكة وعزلته العميقة تجعل من هذه الخطط البسيطة أمراً غير ممكن التحقيق ؛ إذ انه اضطر لكتابته وهو يجتاز آلاف الكيلومترات ، وقد تأخر الكتاب اثني عشرة سنة ليصل إلى شكله النهائي ، وخلال هذا الوقت اتسع العمل وفاض من حواف تشيلي ليصبح نشيد اميركا بأسرها .

لقد رأينا الأسباب التي جعلت من عام ١٩٣٩ معترضة اوروبية جديدة في حياة نيرودا : فبعد انتهاء مهمته مع اللاجئين الاسبان ، يرجع الشاعر من جديد إلى وطنه . ويفعل ذلك ، تفاؤلاً ، على عتبة سنة جديدة (يوم ٢ كانون الثاني ١٩٤٠)، وفي بداية حقبة ستكون الحقبة الأكثر اميركية في حياته . ومع ذلك فإنه لا يبقى في تشيلي إلاّ لفترة قصيرة لأن حكومته تعينه قنصلاً عاماً في مكسيكو ، التي يتوجه إليها في شهر آب من هذه السنة ، ويبقى فيها حتى الشهر نفسه من سنة ١٩٤٣ . وخلال شهري أيلول وتشرين الثاني يعود إلى تشيلي عبر الطريق المحاذي لشاطىء الباسفيك ، في رحلة طويلة ومحفوفة بالحفاوة ، سبقها التكريم الصاخب من جانب اصدقائه المكسيكيين . وتكتب مرغريتا اغيري ، المتخصصة في سيرة حياته ، حول هذه الفترة ، فتقول : **في كل مكان كانوا يبايعونه بشكل لم يحدث ، على ما أعتقد ، لأي شاعر آخر** . وعن تلك المرحلة أيضاً تقول رفيقته فولوديا تيتلبويم مؤكدة : **لم يحتل شخص تشيليّ أبداً مكانة رفيعة ، وعزيزة ، وخطيرة في عدد كهذا العدد من البلدان الاميركية كالمكانة التي احتلها نيرودا** .

في السنة التالية ـ وقبل اتمامه الأربعين بقليل ـ يمنح الجائزة البلدية للشعر في سنتياغو ، وفي عام ١٩٤٥ يحصل على الجائزة الوطنية للآداب . وتتوالى التكريمات والتشريفات في الانهمار عليه ، وتتضاعف طبعات كتبه وترجماتها في هذه السنوات ، بينما النشيد الشامل يتابع مخاضه ببطء ودقة .

ومنذ شهر آذار (مارس) ١٩٤٥ يصبح نائباً عن الحزب

الشيوعي في مجلس الشيوخ ، ولكن معارضته لحكومة غابرييل غونثالث بيديلا تتسبب في طرده . وفي الخامس من شهر شباط (فبراير) ١٩٤٨ يصدر أمر باعتقال نيرودا ، فيبدأ الشاعر مرحلة خصيبة من الحياة السرية ، ينهي خلالها نشيده الشامل . وبعد هروب روائي إلى الارجنتين ، عبر جبال الانديز الجنوبية ، يغادر كذلك هذا البلد الأخير - إذ ان الشرطة البيرونية ما كانت ستتوانى عن تسليمه لمطارديه - مستخدماً جواز السفر الخاص بميغيل انخل استورياس ، الذي كانت تربطه به صداقة حميمة وتشابه كبير في الملامح . وفي اوروبا - في نيسان (ابريل) ١٩٤٩ - يعود إلى العلنية ، ويدعى للمشاركة في المؤتمر الأول لأنصار السلام الاميركيين اللاتينيين ، الذي عقد في مكسيكو في شهر ايلول (سبتمبر) من تلك السنة . ويلتقي هناك من جديد بماتيلدي اوروتيا - زوجته الأخيرة ، وارملته حالياً -، والتي كان قد تعرف عليها في تشيلي ، وتبدأ العلاقة بينهما : حيث يسقط الشاعر مريضاً ويضطر للبقاء في القطاع الاتحادي - حيث كانت تعيش ماتيلدي في ذلك الحين ، بحكم عملها كمديرة لمدرسة للغناء - حتى نهايات العام .

وفي مكسيكو بالذات ، في بدايات عام ١٩٥٠ ، تظهر الطبعة الأولى من النشيد الشامل ، الذي يستقبله النقد بأشد الحماس ، وتجري ترجمته بسرعة إلى لغات العالم الرئيسية في السنوات التالية .

ابحارات وعودات

(١٩٤٩ - ١٩٦٤)

« اني احبكما أيتها المثالية والواقعية ،
مثل ماء وحجر
انتما
جزءان من العالم ،
ضوء شجرة الحياة وجذرها » .

بعيداً عن الانهاك في الجهد الطوفاني المبذول في النشيد الشامل ، يبدو أن اشعار بابلو نيرودا قد استمدت دفعاً أرضياً ومحيطياً منذ انجازه : فخلال السنوات الأخيرة من حياته ، أصبحت اعماله ـ الواسعة ـ ضخمة ومتنوعة . فقد أضيف إلى اعماله الكاملة خمسة وعشرون كتاباً (أي مجلدين من الورق الرقيق ، مؤلفين من ٣٢٣٧ صفحة ، صدرا مع الطبعة الثالثة من الأعمال الكاملة عام ١٩٦٨) واستمرت مؤلفاته بالاتساع ، فصدرت عشرة كتب أخرى فيما بعد . كما أضيفت أحداث جديدة هامة إلى سيرة حياته ، حيث نال ، ككاتب ، جائزة نوبل ، ورُشح ، كرجل ذي شعبية ، إلى رئاسة الجمهورية في وطنه . وللاطلاع على حياته الخاصة والعامة ،

سأحيل القارىء ـ منذ الآن ـ إلى العرض التاريخي لحياته الوارد في بداية هذا الكتاب ؛ وسأحاول في الصفحات المتبقية أن اركز بشكل خاص على تطور اعماله الشعرية .

إن اختيار التواريخ التي ترافق عنوان هذا الفصل لم يكن اختياراً محايداً : ففي عام ١٩٤٩ انهى نيرودا **النشيد الشامل** ، وفي عام ١٩٦٤ نشر الاجزاء الخمسة ، التي تؤلف **ذكريات ايسلانغرا** . وأنا اعتبر هذين العملين هما العملان الكبيران اللذان يمثلان نضوجه الشعري (ولا بد أن أضيف اليهما أيضاً ديوان **اغنية البحارة** الصادر عام ١٩٦٧) . ولكن نيرودا كتب ونشر خلال هذه السنوات ثلاثة عشر كتاباً آخر ، سأقدمها من خلال تشابُهاتها ـ عندما تتوافر هذه التشابهات ـ، متبعاً بشكل عام ترتيبها حسب أهميتها ، من الأقل إلى الأكثر أهمية .

رحلات : هو كتاب نثري ، نشر عام ١٩٥٥ ، يتضمن ثلاث محاضرات ألقاها نيرودا في زمن سابق . والمحاضرة الأكثر اهمية منها هي الأولى (« رحلة إلى قلب كيبيدو ») ، وذلك بسبب المداخلة الشخصية التي يقوم بها حول الميتافيزيقيا الكيبيدوية ، القائلة بأن « المرض الوحيد القاتل هو الحياة » .

في عام ١٩٦٠ ينشر **اغنية مفخرة** ، وهو الكتاب الشعري الأول المكرس للثورة الكوبية الوليدة ، والكتاب منظوم على شكل مقطعات من أحد عشر بيتاً ، متناوبة القوافي ؛ أي أنه منظوم بأحد أكثر اشكال الهندسة الشعرية تقليدية وشعبية وذلك لتسهيل حفظه عن ظهر قلب أو لتحويل قصائده بسهولة إلى اغانٍ . وفي السنة

التالية يظهر ديوان **احجار تشيلي** ، ليمثل فصلاً جديداً ـ يمكن تسميته بالفصل الحجري ـ في هذا التأريخ الشاهدي القائم في مركز المشروع الشعري النيرودي .

ديوانان حول الحب هما اللذان يكرسهما الشاعر لزوجته ، ماتيلدي اوروتيا ، وإذا كان بالامكان رؤية الكتابين كليهما ككل واحد ، من ناحية وحدة العاطفة التي أوحت بهما ، فإنهما مختلفان فيما يتعلق بالشكل الفني ، والبناء ، واستطيع أن أقول بأنهما مختلفان في المِزاج كذلك . فديوان **اشعار القبطان** (كتب عام ١٩٥٠ ؛ ونشر في ايطاليا على يد الناشر باولو ريشي ، في طبعة خاصة ومغفلة من اسم المؤلف عام ١٩٥٢ ، ثم نشرته دار النشر لوسادا وهو مغفل من توقيع صاحبه كذلك عام ١٩٥٤ ، وقد اعترف به الشاعر أخيراً في عام ١٩٦٣). يبدو استمراراً لقصائد الحب العشرين الشهيرة ، سوى أنه محمل بتجربة جسدية أكبر ، وبرؤية غنائية راسخة الأقدام في الأرض . أما ديوان **مائة قصيدة حب** (١٩٦٠) فهو ، على العكس ، أحد اعمال نيرودا الشعرية المشغولة بتقنية عالية . إن هذه «القصائد الخشبية » ـ كما يسميها الشاعر ، وهو يشير إلى رفضه الطوعي للقوافي الغنائية ـ تصدح على كل حال بموسيقى رائعة ، تكفي بحد ذاتها لتبدد أكثر من نقد أخرق حول اخلاص نيرودا وحميميته في عمله (والقضية هي أن لا بد من قلب جميع حدود هذا النقد : فعندما يهبط نيرودا لينظم اشعاراً ديماغوجية ، أو مكرورة ، أو نائحة ، فهو دون شك لا يفعل ذلك لأنه « لا يخرج معه » ما هو أفضل ، وإنما لأن لديه اسبابه الايديولوجية ـ التي يمكن اعتبارها غير

شاعرية أو العكس ، ولكن هذه قضية أخرى ـ ليكتب بهذه الطريقة) .

منذ خروجه من تشيلي ، عام ١٩٤٩ ، وحتى عودته الظافرة في آب (أغسطس) ١٩٥٢ ، يعيش نيرودا محروماً من وطنه لأكثر من ثلاث سنوات ، يسافر خلالها بلا توقف : ففي هذه المرحلة يكتشف ايطاليا وروعة البحر المتوسط ، ويقوم أيضاً برحلاته إلى الاتحاد السوفييتي والصين واوروبا الشرقية . ومن هذا التوسع في رؤيته الاوروبية والاسيوية ، الذي سيستمر خلال السنتين التاليتين (انظر الاستعراض التاريخي) يبرز كتابه الأكثر إثارة للنقاش ـ وربما الكتاب الذي يلاقي أقل عدد من المعجبين ـ، ولكنه كان الكتاب الأقرب إلى نفس مؤلفه : **الاعناب والريح** . وقد تحدث نيرودا عنه ، قبل نشره بقليل ، في المؤتمر القاري للثقافة الذي عقد في سنتياغو دي تشيلي عام ١٩٥٣ ، فقال :

بعد كتابي **النشيد الشامل** وبعد رحلاتي عبر العالم ، كتبت ديواناً، لا يزال بلا عنوان ، التقط فيه احب الأمور إلى نفسي في كل من اوروبا القديمة واوروبا الجديدة . وأنا أطلق تسمية اوروبا الجديدة على اوروبا الاشتراكية . وأريد لهذا الكتاب أن يكون مساهمة مني في السلام . فأنا أبحث فيه عن أفضل منجزات أوروبا الغربية واوروبا الشرقية ، ابحث عن الأبطال والشعوب ، عن العصافير والحاصلات ، عن الأرض ، الجسور ، القرى ، النبيذ وأريد لهذا النشيد أن يجمع شمل هذه الوحدة المُهَددة : عالمنا اليوم .

وبعد عدة سنوات ، يخرج في مذكراته ليدافع عن كتابه الذي تعرض للطعن أكثر من سواه :

الحقيقة هي أن في نفسي ميلاً إلى ديوان « الاعناب والريح » ، ربما لأنه الكتاب الاصعب على الفهم ، أو لأنني شرعت عبر صفحاته بالتجوال في العالم . إن فيه غبار دروب ومياه انهار ، فيه كائنات ، ومجالات وما وراء بحار لأماكن أخرى ما كنت اعرفها وانكشفت لي لكثرة تجوالي . إنه واحد من أحب كتبي إلى نفسي ، أكرر هذا واعيده .

دون الوقوع في مبالغات أحد النقاد الاكوادوريين ـ الذي راح يؤكد أن الكتاب كله لا يتضمن أكثر من ست صفحات من الشعر الحقيقي ـ فإننا كذلك لا نجاري الشاعر في حماسته لهذا الكتاب . ويبدو لي في أفضل الأحوال أنه كتاب انتقالي ، ونوع من المعارضة الأوروبية للنشيد الشامل ، لم يتوصل فيه نيرودا إلى العثور على الايقاع الكبير الذي تسمح بساطته التعبيرية الرائعة بالحديث عن كل الأمور على الإطلاق ، دون فقدان السيولة الشعرية ، التي تتحول إلى تنفس حقيقي آخر . إن الكتاب يحتوي بكل تأكيد على أكثر من ست قصائد ممتازة ، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه العديد من القصائد الدعائية الضيقة ، وهذه القصائد ، على الأقل ، هي أكثر من العدد المطلوب لكي لا يفقد الكتاب توازنه .

الكتاب الثاني في هذه السنوات ، والذي سأقيّمه أيضاً على أنه كتاب انتقالي ، هو ديوان اغان احتفالية (١٩٦١). ولكنني اعتقد أن الحديث عن الانتقالية في هذه المكانة والمعرفة الشعرية التي وصل

إليها نيرودا ، لا يمكن أن يكون تحقيراً ، وإنما يجب أن يُفهم ضمن سياق أعمال نيرودا الكثيرة والمتنوعة . إن **اغان احتفالية** ـ لو أخذ معزولاً ، وكان من نتاج شاعر آخر أقل عالمية وشهرة ـ هو كتاب عظيم ، مع أنه ليس كذلك بالنسبة لهذه السنوات من حياة نيرودا التي انتجت اعمالاً أخرى سنراها فيها بعد . وكمثال على ثقة الشاعر واحكامه لكلماته في ذلك الحين ، اظن أنه يكفي ايراد نهاية قصيدة « ابن العم الغربي »، وهي القصيدة ـ المقدمة للكتاب .

الرمل الذي فقدنا ، الحجر ، الأوراق ،
الشريط البري ، وما كناه ،
نراه متخلفاً وراءنا ولا من يبكيه :
فالمدينة لم تأكل فقط الصبية
القادمة من « تولتين » بسلتها الفاتحة
المفعمة بالبيض والدجاج ،
وإنما أكلتك أنت أيضاً أيها الغرب ،
أنت أيها الأخ المصلوب ،
المعادي ، يا وغداً بيد السلطة :
وشيئاً فشيئاً صار للعالم طعم الدود
ولم تعد ثمة أعشاب ،
ولم يبق ظلّ على كوكبنا .

في عام ١٩٤٥ ، يفتتح نيرودا بنشره ديوان **اغان** بداثية مرحلة جديدة ، وخصبة، ورائعة من شعره ، متوصلاً إلى مأثرة لا سابق لها في الشعر الناطق بالاسبانية : فقد شيد بناء شعرياً شامخاً ومشبعاً

بذاتيته ، وذلك بحشد ونقل المواد الشعرية الدنيا ، بل والهشة ، مع كل تلك الموضوعات التي اعتبرت، حتى ذلك الحين ، غير لائقة في الشعر (إذا ما تم تناولها بشكل منهجي على الأقل). فالأرضي شوكي ، وحساء ثعابين الماء ، والبصل ، والبندورة ، والسلك الشائك ، والزيت ، والجوارب ، والكبد ، والخوخ هي التي تسكن هذه الدواوين الصافية الشفافة (صدر ديوان اغان بدائية جديدة في السنة التالية ، ثم ديوان الكتاب الثالث للاغاني عام ١٩٥٦ ، ولا بد من اضافة ديواني ابحارات وعودات (١٩٥٩)، وصلاحيات كاملة (١٩٦٢) إلى هذه الحلقة ، فكلاهما كتابا اغنيات بمفهومهما وبلغتهما ، وقد وصل عدد هذه الاغنيات إلى ٢٧٩ اغنية). ويقول أ. كوماس ، في معجم بومبياني الأدبي : . يبدو وكأن الأشياء المقوضة ، والمعفرة ، والتي تظهر متفسخة في ديوان اقامة في الأرض ، تحصل فجأة على شخصيتها الكاملة ، وترسخ كينونتها ، وضرورة وجودها . ويصل نيرودا في الاغنيات إلى غزو كل ما هو محسوس . وحتى أن الناقد المتزمت الوني - بطريرك النقد التشيلي ، والعدو السياسي لنيرودا - يرضخ أمام لقية الشاعر التي لا شك في عبقريتها ، وفي تعليق لا اسراف فيه يقول : . . . عارٍ من الحزن ، ومن الظلمة والحقد ، ودون نواحٍ ولا شعارات ، نجد شاعراً ساطعاً في شعر كوني ، شاعراً واضحاً ، الشاعر الابسط والأوضح ، سعيداً ، طيباً (. . .) ويؤكدون بأن هذا الوضوح فرضه عليه السوفييت ليصل إلى الشعب . وإذا كان هذا صحيحاً فإنه يتوجب علينا أن نسامح السوفييت كثيراً ؛ لأنهم اصابوا كثيراً ، فنيرودا الواضح والسعيد أشمخ بكثير ، وأكثر حرية - وهو أمر

علاقته ضئيلة بالماركسية ـ، فقد أصبح وكأنهم قد افلتوا زمامه ولم يعد يمشي تحت وطأة ذلك الثقل . وبعد تصفية المرارة ، وابعاد التعقيد المظلم ، كان الخوف من أن يبحث الشعر عن الاسفاف والتدني إلى المستوى العادي وأن يهبط ليصبح نثراً . ولكن شعر نيرودا لم يظهر أبداً بمثل هذه الصحية .

ويستحضر الشاعر نقطة البداية في مفهوم الاغنيات ، فيعطي رشداً لنقاده ، ويشير مباشرة إلى نقطة الانطلاق المفترضة في عمله .

> . . . افترضت لنفسي ركيزة اصيلة ، مولدة . رغبت باعادة وصف اشياء كثيرة غُنيت وقيلت وأعيدت مراراً وتكراراً . كان لا بد لنقطة انطلاقتي المتعمدة أن تكون نقطة انطلاق الطفل الذي يبدأ ، وهو يمص القلم ، بكتابة موضوع انشاء مفروض عليه كوظيفة مدرسية عن الشمس ، أو عن السبورة ، أو عن الساعة ، أو عن الأسرة الانسانية . ولا موضوع كان يمكن أن يبقى خارج دائرتي ، كان عليّ أن ألمس كل شيء وأنا سائر أو طائر ، مخضعاً تعبيري للشفافية القصوى والبتولة الكبرى .

إن الميول الوصفية عند نيرودا ، تصل في الاغنيات إلى حد الاشباع : فهو مطلق التسميات ، الذي يؤسس الواقع بالكلمة ؛ ويلتقي قدره كشاعر ومفهومه للشعر لقاء نهائياً اعتباراً من هذه المرحلة . ولا بأس علينا أن نورد ـ كنموذج لفن الشعر في هذه المرحلة ، والذي ستبقى صلاحيته سائدة اعتباراً من هنا وحتى النهاية ـ قصيدة « واجبات الغد »، وهي القصيدة ـ الخاتمة التي

ينتهي بها ديوان ابحارات وعودات :

اغنية بلا نهاية ، الامس
والغد (اليوم مبكر)
تولد ، ولدت ، ستولد ،
لتفيد عطش السائر والدرب ،
وستهطل كالمطر ،
كالخريف ستسقط
لتهدر
صفاء الري

* * *

لكل عجلة أقول ،
انتظري أيتها العجلة ، انتظري :
ها أنا آت ، ها أنا قادم ، شمساً
صغيرة
لنتدحرج معاً .

أجل أيتها العجلة ، سنتدحرج معاً .
أجل أيها اللهيب ، سنلتهب معاً .
أجل أيها القلب ،
أعرفُ ،
أعرفُ ،
ومعروف أنه :

إلى الحياة ، إلى الموت
هذا المصير ،
لكننا مغنين سنموت .

ديوان آخر من التي سنتناولها في هذا الفصل هو ديوان شاذ (١٩٥٨)، وهو بلا ريب كتاب متفرد بين كتب نيرودا ، لا سابق له بين اعمال الشاعر ولن يكون له أي استمرار . فالكتاب بأسره ، اعتباراً من العنوان الاحتفالي المبتكر ، هو فرح نقي ، وظرافة متأرجحة .

من بين كتبي كلها ديوان شاذ ليس هو أكثرها غناء ، بل هو احسنها وثباً . إن أبياته الوثابة تقفز متجاوزة الوقار والاحترام ، والحماية المشتركة ، والقواعد السائدة والواجبات ، كي ترى الاستهتار المكرم . بسبب وقاحته هو أكثر كتبي الفة في نفسي ، وبسبب مداه يتوصل إلى احراز اهمية ومكانة داخل شعري . وعلى طريقتي في التذوق ، اعتبره كتاباً عسيراً ، وله طعم الحقيقة المالح .

وهذا الديوان هو دليل آخر ، ولن يكون الأخير ، على تجديد نيرودا الذي لا يتوقف ، وقلقه الرائع للاحاطة بكل الشعر ، وليستخرج جميع تخوم الشعر المختفية في اعماقه . ولا أجد لمناقشة هذا الكتاب الخالي من أي وقار ومن أي نوايا مسبقة ، أفضل من ايراد ابيات متفرقة كمختارات خاطفة من القصائد الثماني والسبعين التي تؤلفه . فكل فلسفة الزين (Zen) التي احاطت بها معارف نيرودا في شبابه ، تنعكس فيها :

إذا رغبتم فاذهبوا الآن .
لقد عشت كثيراً ، ولا بد أنكم
ستنسونني يوماً
وتمحوني عن السبورة :
لقد كان قلبي بلا نهاية .
ولأني أطلب صمتاً
فلا تظنوا بأني سأموت ؛
بل على العكس تماماً :
ما يحدث هو أني سأعيش .

« اطلب صمتاً »

وداعاً يا شارع الزمن القذر ،
وداعاً ، وداعاً أيها الحب الضائع ،
سأرجع إلى صنوبرة بيتي
سأرجع إلى حب محبوبتي ،
إلى ما كنت وإلى ما أنا كائن ،
ماء وشمس ، أرض وتفاح ،
شهور بشفاه واسماء ،
سأرجع كي لا أعود ،
لن اخطىء ابداً بعد اليوم ،
فالمسير إلى الوراء خطير
لأن الماضي فجأة يصير سجناً .

« عودة إلى مدينة »

إذا اردتم فلا تصدقوا شيئاً مما قلته .
رغبت أن أعلّمكم بعض الأمور فقط .
لأني استاذ في الحياة ،
وتلميذ كسول في الموت
وإن كان ما قلته لا ينفعكم
فأنا لم أقل شيئاً ، وإنما كل شيء .

« ليس عالياً جداً »

اخاف من كل ما في العالم ،
من الماء البارد والموتْ .
وأنا مثل جميع الفانين ،
لا أتأجل .
ولهذا ، لن اهتم بكم
في أيامي القصيرة هذه ،
سأفتح نفسي واغلق نفسي
مع عدوي الغادر الكبير ،
بابلو نيرودا .

« الخوف »

لقد رأيت بعض التماثيل
مقامة للجبابرة ،
لحمير النشاط .
إنهم امامكم بلا حراك
حاملين سيوفهم

على صهوات جيادهم الحزينة .
إنني متعب من التماثيل .
لا أستطيع احتمال كل هذه الحجارة .
وإذا استمرينا نملأ الدنيا
بهؤلاء الجامدين ،
فكيف سيجد الاحياء مكاناً للحياة ؟

« بعض المتاعب »

وهكذا، لأخرج من الشكوك
قررت أن أحيا حياة شريفة
حياة أشد الكسل نشاطاً،
طهرت نواياي،
وخرجت لآكل مع نفسي
فبدأت أصير أخرس.
جذبت نفسي أحياناً لأرقص معي،
لكن بلا حماسة كبيرة،
ونمت وحيداً، بلا شهية،
كي لا أخطىء بالغرفة.

« حول قلة ادبي »

في عام ١٩٦٤ ، وفي نفس اليوم الذي اتم فيه الستين من عمره ، اهدى نيرودا للنشر ، الاجزاء الخمسة من **ذكريات ايسلانغرا** ، وهو الديوان الذي أعتبره أكثر أعماله تمثيلاً . ولا أقول أجمل أعماله ، إنما أكثرها تمثيلاً لشعره . فالجوهر الانتولوجي للشعر

النيرودي حاضر كما لم يحضر في أي عمل آخر من أعمال الشاعر ، وكذلك سيرة حياته المعادة من جديد ، ومفهومه للتأريخ كمستقر للشاعرية .

لقد عدت في هذا العمل أيضاً ، متعمداً ، إلى البدايات الحسية لشعري ، إلى غسقيات ، هذا يعني ، إلى القصيدة التي تحمل آثار كل يوم . وعلى الرغم من وجود خيط بيوغرافيّ ، فإنني لم أبحث في هذا العمل الطويل ، المؤلف من خمسة أجزاء ، إلاّ عن التعبير السعيد أو التعيس الذي يأتي به كل يوم . وصحيح أن هذا الكتاب متسلسل كقصة تتفرق ثم تعود لتتحد ، قصة توالي احداث حياتي بالذات ووقائع الطبيعة التي تتابع مناداتي بجميع أصواتها التي لا حصر لها .

حيث يولد المطر ، القمر في التيه ، النار القاسية ، صياد الجذور ، وسوناتا نقدية هي ، على التوالي ، عناوين الاجزاء الخمسة التي تؤلف ديوان ذكريات ايسلا نغرا .

ويبتدىء الطريق من تيموكو النائية ، حيث يكتشف الشاعر العزلة الجنوبية ، والمطر ، والغابة .

منذ ذلك الحين
صار حبي خشبياً
وكل ما ألمس يصبح غابة .
تختلط علي العيون والأوراق
بعض النساء مع ربيع البندق ،

الرجل مع الشجرة ،
أحب عالم الريح والأوراق ،
ولا أميز بين الشفاه والجذور .

« الرحلة الأولى »

إنه الزمن الذي ما زالت تترأسه، بالحب ، « زوجة ابيه ».

التي طبخت ، وكوت ، وغسلت ،
التي زرعت ، وسكّنت آلام الحمى ،
وعندما انجزتْ كل شيء ،
وأصبحتُ أنا
قادر على الوقوف بقدمين ثابتتين ،
مضت ، وقد أدت واجبها ، مظلمة ،
إلى التابوت الصغير
حيث اصبحت بطّالة للمرة الأولى
تحت أمطار تيموكو القاسية .

وهو زمن عامل السكة الحديد القاسي رييس ، الذي حاول عبثاً ابعاد ابنه عن الشعر .

والدي المسكين القاسي
كان هناك ، في محور الحياة ،
في الصداقة الرجولية ، في الكأس المترعة .
حياته كانت نضالاً سريعاً
وما بين استيقاظه المبكر وبين دروبه ،

ما بين وصوله ليخرج من جديد راكضاً ،
صعد السائق خوسيه دل كارمن رييس
في يوم ماطر أكثر من الأيام الأخرى ،
إلى قطار الموت ولم يرجع
حتى اليوم .

إنه زمن المشاعر الغرامية الأولى كذلك ، وهو دون السن الذي يمكنه من تحقيق تلك الغراميات ولكن لديه الخيال الكافي لتفتيح « زهرة الرغبة الجائعة والنقية »؛ زمن زيارة الشعر الأولى (« تدحرجتُ مع النجوم ، / وأفلت قلبي في الريح . ») ثم يأتي بعد ذلك النمو ، ومعه يأتي القلق ، والبحث عن هوية ربما هي حنين لتلك الهوية الأخرى التي احرزها دون أن يعي ذلك .

وفجأة ظهر في وجهي
وجه غريب
وكنت أيضاً أنا نفسي :
كنت أنا الذي أكبُر ،
كنت أنت الذي تكبر ،
كان الجميع ،
وتغيرنا
ولم نعرف أبداً من كنا .
احياناً نتذكر
ذاك الذي عاش فينا
فنطلب منه شيئاً ، ربما نطلب أن يتذكرنا ،

أو أن يعرف على الأقل بأننا كنا هو ،
وأننا نتكلم بلسانه ،
ولكنه ينظر إلينا من خلال الساعات المستهلكة
ولا يتعرف علينا .

« الطفل الضائع »

وتستمر الذكريات ، بلا كلل ، عبر رمال الذاكرة : اكتشاف سنتياغو والمغامرة العاطفية الأليمة في شارع ماروري ، والحنين إلى « تيروسا » المهجورة في تيموكو ، والميل الشغوف إلى « روساورا » التي يلقاها في العاصمة ، والاصدقاء في عربة البوهيمية (« ما بين زجاجات حمراء تفرقع / وهي تسكب ياقوتها احياناً ، / لتستل سيوفاً وهمية ، / تدور مناقشات عن الجرأة العقيمة . ») ؛ والافتتان بالشرق المداري ، مع أنه كان دائماً يشعر بالغربة هناك (« وصلت غريباً أكثر من أسُود البوما / ومضيت دون أن أتعرف على أحد / لأن ضوء الجنة القذالي ، ربما ، / قد شوش عظامي . »)، ورؤيا باريس الحريفة ، في مروره العاجل في اوروبا للمرة الأولى عام ١٩٢٧ .

كانت ما تزال بقايا تانغو على الأرض ،
ومشابك كنيسة كولومبية ،
مناظير وأسنان يابانية ،
بندورة اروغواييية ،
وجثة نحيلة لتشيلي ما ،
كله كان سيُكنس ،

وسيُغسل في غسالة عظيمة ،
كله سينتهي إلى الأبد :
رماداً لذيذاً للغرقى
المتمايلين بطريقة غير مفهومة
في النسيان الطبيعي لنهر السين .

« باريس ١٩٢٧ »

وقبل أن يتابع رحلته ، يتوقف الشاعر ليجري على نفسه الفحص الأول من فحوص الضمير التي يتضمنها الكتاب ، ملتحمة بالسيرة والتأريخ .

يتملكني الخوف أحياناً
من المسير بجانب النهر الهائج ،
من النظر إلى البراكين
التي عرفتها دائماً وعرفتني :
ربما في الأعلى ، أو في الاسفل ،
ربما الماء ، أو النار ، تتفحصني الآن :
وتفكر بأني لا أقول الحقيقة ،
وبأنني اجنبي .

« الرسائل الضائعة »

لكنه يعود ليمسك بخيط من « اريباندا » ليروي من جديد ، وبصورة نهائية ، قصة الحرب الاسبانية ، وضياع المدينة التي احبها (« احببت مدريد لحاراتها ، لشوارعها التي تسقط إلى كاستيّا / مثل انهار صغيرة من عيون سوداء »)، والعودة إلى تشيلي ، وتجربته

السياسية كعضو في برلمان وطنه . وفي معترضة جديدة ، يتوقف الشاعر عن السرد : يفكر . يفكر بالبحر ، بالثلج ، بالأرق ، بوعيه ، بالشتاء (« لقد انتظرت هذا الشتاء كما لم ينتظر أي شتاء آخر / رجال ، قبلي »)، بالغابة ، بالليل ، بالجبال : ويفهم أن « الحياة فرض واجب » . فيفتتح عندئذ **السوناتا النقدية** ، المؤلفة من تسع عشرة قصيدة أخيرة هي تصفية دقيقة لحساباته مع نفسه . في بدايتها تقريباً ، يكتب بجدية ونضوج :

ستشرق بلا شك
وبلا شك
سيتبدل النهار ،
ستدور العجلة ،
وستتحول النار .

لم يعد ثمة شيء
مما أشرق ،
الأرض احترقت
عنبة بعد عنبة ،
والقلب بقي بلا دماء ،
والربيع بلا اوراق .

« إنها تشرق »

لا يمكن للشاعر أن ينسى شيئاً في هذه الرحلة إلى اعماقه ، فهو يكرس قصيدة طويلة (« الحدث ») ليتكلم عن الازمة التي اثارتها خيبة أمله بستالين ، بعدما كشفه المؤتمر العشرون . وبعد تصفية

الحسابات حول هذا الموضوع ، يستعيد البساطة السعيدة التي اظهرها في كتب الاغنيات .

إن بعض الابيات من قصيدة « ليس ثمة ضوء نقي » - وهي قصيدة موجودة في منتصف الذكريات تقريباً - ستكون أفضل من أي تعليق حول توازنات ومعارف هذا الكتاب ، الذي يبدو وكأن نيرودا قد جمع فيه تعددية اصواته ، في انطولوجية شاملة .

الوقت متأخر ، متأخر . واستمر .
استمر بايراد مثال بعد آخر ،
دون أن اعرف ما هو المغزى ،
فلكثرة الحيوات التي عشتها اصبحت ساهياً
وأنا ، في الوقت ذاته ، ذلك الرجل الذي كنته .
ربما هذه هي النهاية ، هذه هي الحقيقة الغامضة .

حديقة الشتاء

١٩٦٥ - ١٩٧٣

« ولم أجد الوقت ولا الحبر الكافي لأكتب كل شيء »

ما تزال أمام نيرودا « دزينة » من الكتب التي سينشرها قبل موته ، بالاضافة إلى تأليف وعرض عمله المسرحي الوحيد : **تألق وموت خواكين موريتا** ، وفيه يروي مغامرات ونكبات قاطع طريق تشيلي في كاليفورنيا خلال حمى الذهب ، والمسرحية توسيع درامي لاحدى قصائد ديوان **أغنية البحارة** .

في ١٩٦٦ يرى النور ديوان **فن العصافير**، المؤلف من خمسين قصيدة مكتوبة باسلوب بارع يتجاوز الاتقان الفني في بعض الاحيان ، واعتقد أن نيرودا قد استمتع كثيراً بكتابتها . ويمكن الحاق هذا المرجع في علم الطيور ليصبح الديوان السادس في مجموعة دواوين **الاغنيات** : فبعد المعارف والتقنيات التي توصل إليها ، أصبح بامكان نيرودا أن يكرس كتاباً كاملاً لأي مظهر من مظاهر الواقع

الذي يشغل اهتمامه إلى حد كاف ، دون أن يخاطر بالسقوط في التكرار .

بيت على الرمال هي مجموعة من تسع وثلاثين مقطوعة ـ غالبيتها من النثر ـ مزينة بصور فوتوغرافية للمصور سيرغيو لاراين ، نشرته في السنة نفسها دار النشر البرشلونية « لومين » (كبالون اختبار حول امكانية اعادة كلمة الشاعر الممنوعة في اسبانيا) .

أيادي النهار ، الصادر عام ١٩٦٨ ، هو كتاب آخر حول موضوع واحد ، وموضوعه الصنعة اليدوية .

بامكان القصيدة أن تقول الكثير ، دفاعاً عن التيار الانتروبولوجي الذي يدعم تحديد الانسان العامل لتميز ما هو انساني ، في وجه التيار الأكثر بؤساً وتزمتاً الذي يتوج الانسان العارف . فانسانيّ هو الحيوان القادر على صنع أية اداة . وانطلاقاً من هنا ، يبدأ نيرودا في القصيدة الأولى من القصائد الثماني والستين التي تؤلف الكتاب ، بندب تقصيره اليدوي .

أقر بأني مذنب لاني لم أصنع مكنسة ،
بهاتين اليدين اللتين منحتا لي ،
لماذا لم أصنع مكنسة ؟
لماذا مُنحتُ يدين ؟

وعلى امتداد عدة قصائد يتابع الشاعر الاشارة إلى يديه العاجزتين اللتين لم تصنعا معدناً ولم تحرثا أرضاً ، ويطري على الايدي الأخرى ؛ التي تبني الوقائع الملموسة . إلى أن يكتشف الاستمرار

السفلي للايقاع ، الموضوع تحت الارضي للكتاب ، والذي لغرابته يصعب الامساك به في القراءة الأولى : فالشاعر متعب للمرة الأولى والوحيدة في عمله ، ثمة اجهاد ، وخيبة أمل ، وشباك عنكبوت تفرض نفسها ما بين نشيده ومشيئته .

لن ترجع تلك الأيام الفسيحة
التي دعمت في مرورها ، السعادة.
حفيف خمائر
كنبيذ قاتم في الاقبية
كان عمرنا . وداعاً ،
وداعاً ، تنزلق
وداعات كثيرة كالحمائم
في السماء ، نحو الجنوب ، نحو الصمت .

إن رتابة الوجود ، والغنغرينا التي تتسلق الحياة نحو الموت ، تتسلل كلها عبر هذه الصفحات الخريفية . لكن نيرودا يشفى من الهبوط ، فينفض عنه الكآبة ويرجع إلى طريقه في ديوان **نهاية العالم** ، وهو ارتداد جاء في وقته المناسب وتباهى فيه أيضاً بمهارته الشعرية باستخدام المقطعات التساعية الصعبة . ومع ذلك ، فإن عنصراً قد اختفى من شعر نيرودا اعتباراً من **أيادي النهار** وهذا الغياب واضح في **نهاية العالم** وفي **مازال** ، وهما الديوانان اللذان صدرا عام ١٩٦٩ ، وهذا العنصر هو : الانشراح . إن هذا الاختفاء ، من وجهة نظري ، ليس نقيصة ، وإنما على العكس تماماً : ففي الخامسة والستين من عمره ، كان نيرودا قد أصبح عالماً إلى درجة عدم

التمسك بالانشراح ؛ فثقته الايديولوجية التطورية استمرت على رسوخها ، ولكنه شخصياً كان قد ادار ظهره لكل شيء : فهو يعرف بأنه لن يحدث له أي جديد ، ويتأمل أعماله على أنها مرج فسيح ، وهي كذلك فعلاً . وربما من هذا المنطلق يجب ملاحظة الدورة اللامفهومة بالنسبة للكثيرين التي يتنفس منها نيرودا في كتابه التالي : **السيف المتقد** ، الصادر عام ١٩٧١ .

تروي هذه الاسطورة قصة ناج من التدمير العظيم الذي اجهز على الانسانية . وهو مؤسس مملكة قائمة في عزلات خليج ماغيانيس الفسيحة ، ويقرر أن يكون القاطن الأخير لهذا العالم ، إلى أن تظهر في اراضي مملكته فتاة هاربة من مدينة القياصرة ، أوريّا .

إن القدر الذي حملها إلى الخطيئة يرفع ضدهما السيف المتقد القديم لآدم الجديد المتوحش والمتوحد ، وعندما يتقد غضب الاله ويموت ، في المشهد المضاء بالبركان العظيم ، يعي هذان الكائنان الآدميان ألوهيتهما .

ومن خلال تحولات رودو وروزي ـ الرجل والمرأة الآدميين اللذين ابتدعهما ـ يختتم نيرودا بشكل متماسك ، في أواخر حياته ، التعادل الغرامي في اعماله . فالغزل الفاحش في دواوينه الأولى ، يتحول فيما بعد إلى حب كوني متضامن ، وتكوين جديد سعيد اعتباراً من الزواج الأخير للشاعر (المحب والمحبوب تماماً)، وتصبح مشاعره الآن كونية وصوفية (و«موت الاله » لا ينفي ذلك وإنما يؤكده) .

ديوان نيرودا التالي هو (**احجار السماء** ، ١٩٧١)، يبلغ عنه من

عنوانه .

في مرةٍ سنغدو راكضين
عبر نار البركان أو عنب النهر
أو دعوة النداوة المخلصة
أو المسيرة الساكنة في الثلج
أو الغبار المنهار في أقاليم الصحراء ،
غبار المعادن ،
أو فيما هو أبعد من ذلك ، في غبار القطب ، موطن الحجر ،
الياقوت الأزرق المتجمد ،
الجنوبي ،
في هذه البقعة أو ذاك المرفأ ، هذه الولادة أو الموْت سنغدو
حجراً ، ليلاً بلا أعلامٍ ،
حباً بلا حراك ، وميضاً بلا نهاية ،
نور الأبدية ، النار الدفينة ،
الكبرياء المحكومة بطاقتها ،
النجم الوحيد الذي نمتلك .

وبلي ذلك ديوان **جغرافية باطلة** ١٩٧٢، **ودعوة لإبادة النيكسونية والاشادة بالثورة التشيلية** ، وهو آخر كتاب نشره الشاعر ، عام ١٩٧٣ ، قبل موته بشهور قليلة . وقد صنفه نيرودا نفسه على أنه كتاب **هجائي** ، وقال عنه : (« **اني ألتجىء إلى استخدام أقدم اسلحة الشعر ، إلى النشيد والهجاء ، اللذين استخدمهما الشعراء الكلاسيكيون والرومانسيون من أجل القضاء**

على العدو »). ولا نستطيع أن نضيف شيئاً آخر حول هذا الديوان ، سوى أن مؤلفه أدرك غرضه بشكل متقن بالمقارنة مع هذا الموضوع في الشعر ، فالكتاب يزخر بالقوافي البسيطة والأوزان الشعبية القابلة للحفظ والتكرار كشعارات .

لقد تركت ، متعمداً ، إلى نهاية هذا الفصل الحديث حول **أغنية البحارة** ، وهو برأيي أهم ديوان للشاعر منذ **ذكريات ايسلا نغرا** وحتى موته .

لقد كتبت ديواناً عظيماً ، واسميته **أغنية البحارة** ، إنه اشبه بالترنيمة ، وقد التقطه هنا وهناك من المواد ، التي تحت يدي ، وهذه المواد كانت في بعض الاحيان مياهاً أو قمحاً ، ورمالاً بسيطة في احيان أخرى ، محاجر أو جروف صخرية قاسية ودقيقة ، والبحر دائماً بصمته ورعوده ، أوابد امتلكها هنا قريباً من نافذتي وفيها حول ورقتي ، وفي هذا الكتاب ثمة قصائد لا تغنى فحسب ، وإنما تروى أيضاً ، لأن الزمان الغابر كان هكذا ، فالشعر كان يغنى ويروى ، وأنا كذلك ، غابر ، وليس لي ثمة وسيلة . . .

إن نيرودا لم « يـغنِ ويـرو » أبداً بكل هذا التناسق الموسيقي كما فعل في هذا الديوان البارع في سنوات نضوجه . فهو يستخدم اصعب الاوزان الشعرية وأفخمها متنقلاً من وزن إلى آخر ليغطي مختلف نبراته الصوتية ، مما يسمح له بمصارعة حقيقية فاخرة مع الثور الشعري .

وتجتمع في اغنية البحارة أيضاً ، وبشكل موضوعي ، بعض الأمور التي توصل إليها نيرودا في عدة جبهات : الاعتراف بنسبه الشعري (في قصيدة التكريم البديعة لروبين داريو ، والذي يطلق عليه ببساطة اسم « ر. د . »)، وميوله الغنائية (خصوصاً في المقاطع الحوارية ما بين موريتا وحبيبته)، وجانب الشاهد فيه (في الوصف الجميل جداً للوطن)، وتفسيره للتاريخ (في تكريمه للورد كوتشران وارتيغاس). ونجد في اغنية البحارة أيضاً وهذا المظهر يغطي الكتاب كله ويشكل قوامه ـ اللقاء بالحب كاملاً ؛ الشعور العميق بأنه وصل إلى الميناء .

حبيبتي ،
أحبكِ وتحبينني واحبكِ :
الأيام قصيرة ، والشهور ، والمطر والقطارات :
البيوت عالية ، والأشجار ، ونحن أكثر علواً :
يقترب الزبد على الرمال ليقبلك :
تهاجر الطيور من الارخبيلات
وتنمو في قلبي جذورك القمحية .

لا شك يا حبيبتي أن عاصفة ايلول
أهوت بحديدها الصدىء على رأسكِ
وعندما رأيتك وسط الريح الشوكية
سائرة بلا دفاع ،
أمسكت بقيثارتكِ التي من العنبر ، وجلست إلى جانبك ،
شاعراً أنني عاجز عن الغناء بدون ثغرك ،

وانني سأموت إذا لم تكوني تنظري إليّ باكية تحت المطر .

ويمكننا مضاعفة الامثلة والشواهد إلى حد استنساخ الكتاب بأسره . ولكنني أريد أن انتهي بإيراد مقطع هو ، بالنسبة لي ، أجمل مثال بين الأمثلة الكثيرة حول « تصفية الحسابات » في كتب نيرودا الأخيرة : وهذا المقطع هو نهاية قصيدة بعنوان « انني بعيد » في ديوان اغنية البحارة .

لقد استبدلت الشمس والفن الشعري مرات عديدة
حتى انني كنت ، ما أزال ، انفع كمثال للكآبة
عندما صنفوني في الفهارس الجديدة كمتفائل ،
وما كادوا يعلنون أنني غامض كفم الذئب أو الكلب
حتى شكوا إلى الشرطة بساطة غنائي
وأكثر من واحد عثر على مهنة وخرج ليقاتل قدري
بالتشيلية ، بالفرنسية ، بالانكليزية ، بالسم ، بالنباح ، بالوشوشة .
ها هنا أحمل الضوء وأمده إلى الرفيق السيّء .
ضوء الشمس المفاجىء في الماء مولداً حمائم ، واغني .
سيكون الوقت متأخراً ، فالسفينة ستدخل في الغياهب ، وأغني .
وسيفتح الليل مخازنه فأنام مغطى بنجوم . وأغني .
وسيأتي الغدبوردة مستديرة في فمه . وأنا أغني .
وأنا أغني . أنا أغني . أغني . أغني .

كتاب التساؤلات

١٩٧٤ - ١٩٧٨

« إذا كنت لم ادع احداً هادئاً
فلن يدعوني هادئاً ،
ليس ذلك مهماً ، وسترى :
سيطبعون حتى جواربي » .

توفي بابلو نيرودا ليلة ٢٣ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٣ . وفي شهر شباط (فبراير) من هذا العام ، تزوره كاتبة سيرته مارغريتا اغيري للمرة قبل الأخيرة ، وتكتب : في دفاتر لها أغلفة خضراء ، ومخطوطة بحبر أخضر أيضاً ، كان يكتب القصائد التي ستؤلف عدة كتب مختلفة . ومع أن بابلو كان يستاء من العبث بأصول كتبه وتقليبها ، فإنني لم استطع مقاومة الاغراء وقد سجلت عناوين الكتب التي ما تزال مشاريع حتى الآن ، وهي : عيوب مختارة وقصائد اخرى ، كتاب التساؤلات، القلب الاصفر ، كتاب الغوثمانيون ، والبحر والنواقيس .

وفي حزيران (يونيو) من السنة نفسها ـ قبل موت الشاعر بثلاثة

شهور ـ تعود مارغريتا اغيري إلى ايسلانغرا ، حيث تلتقي نيرودا لآخر مرة . وتؤكد : بالاضافة إلى مجموعة الكتب التي اشرت إليها ، كتب بابلو في باريس كتاب مذكرات نثري ، وقد اخبرني بأن هذا الكتاب هو توسيع للمذكرات التي نشرها خلال عام ١٩٦٢ في مجلة اوكروتيرو . ولم يسمح نيرودا مطلقاً بنشر تلك المذكرات في اعماله الكاملة لأنه كان يفكر دائماً بتوسيعها . وكتاب المذكرات لم ينته بعد ، ويقوم سكرتيره هوميـرو حاليـاً بتبييض الصفحات الثلاثمائة المخطوطة ، بانتظار أن يعود الشاعر إلى متابعة العمل فيه .

ولا بد أن نضيف أن نيرودا قد انجز كتابه دعـوة لابادة النيكسونية ـ الذي نُشر في شباط (فبراير) من هذا العام ـ ، وإنه كان مريضاً ـ فقد وجدته اغيري يشكو من آلام الروماتيزم ـ ، وإن همومه السياسية كانت تتعاظم بسبب المأساة التشيلية الوشيكة ـ وقد حدس وقوع المأساة بكل وضوح في البيان الذي اصدره في اواسط عام ١٩٧٣ ـ . وأكبر الاحتمالات هو أنه لم يُمل على هوميرو ارثي أية صفحة جديدة من مذكراته ، وأنه لم يضف شيئاً ، أو الشيء القليل فقط ، إلى مسودات كتبه التي لم تكن مكتملة .

وعلى الرغم من الأمور المشار إليها فإن عام ١٩٧٤ قد تحول إلى عام احتفال لا نظير له بنيرودا . فقد ظهرت أربعة من الكتب الخمسة التي « تجسست عليها » مارغريتا اغيري ـ كتاب الغوثمانيون اختفى في هذه الضجة ـ ، كما ظهرت ثلاثة كتب أخرى لم يذكر أي منها في أية مناسبة سابقة : الوردة المفصولة ، و٢٠٠٠ ، ومرثيه . اما

بالنسبة للمذكرات ، فإن الصفحات الثلاثمائة التي نقلها هوميرو ارثي على الآلة الكاتبة ، تتحول إلى أكثر من خمسمائة صفحة في الكتاب الذي اصدرته دار النشر Seix y Barral تحت عنوان **اعترف بأني قد عشت** . وفي عام ١٩٧٨ تنشر دار النشر نفسها اخيراً (اخيراً ؟) كتاب **للولادة وُلدتُ** ، وهو مؤلف من خمسمائة صفحة أخرى من النثر المتنوع ، مستخرجة من عدة اماكن ، ومصنفة في ثمانية دفاتر لإعطائها بعض الترتيب .

ليس لدي أي موقف ضد تنفيذ الوصايا الادبية ، وحتى عندما يتعارض تنفيذ الوصية مع رغبات الميت (وقضية ماكس برود المتعلقة بوصية فرانز كافكا هي أشهر مثال لما اعنيه): فأعمال أي مبدع تصبح ملكاً للعالم بأسره أكثر مما هي ملك خاص به ، ويصبح المبرر أكبر عندما ينهي هو دوره الأرضي .

وما أقصده في قضية نيرودا ، هو الطريقة التي نشرت بها اعماله . فبين يدي الآن ثلاثة من الكتب التي نشرت بعد موته ، لا يتعدى أي منها كونه مسودة . والأمر متعلق طبعاً بمسودات لنيرودا ، ولا بد أن نشرها مهم جداً اضافة لكونه وفاء لاعمال الشاعر . ولكن حداً ادنى من الجدية كان يقضي بجمعها كلها في مجلد واحد ، وارفاقها بدراسة تمهيدية تساعد على وضعها في موقعها الصحيح بين اعمال الشاعر ، وتقديم يميزها عن مؤلفات الشاعر المنجزة في حياته . أما فيما يتعلق بكتاب **أشهد اني قد عشت** فالقضية أشد خطورة ، فعملية التدخل التي مورست لترتيب الكتاب بالتسلسل الذي لم يكن عليه قطعاً ، لا يلحق الضرر بنيرودا كراوٍ فحسب ، وإنما يكشف أيضاً

عن سوء المصداقية الثقافية. ان عدم وجود مقدمة، أو تفسير ممهور بتوقيع يوضح الأسلوب المستخدم في تنسيق الكتاب، هو قضية اشد خطورة من دواوين الشعر (وما ذكره منسقو الكتاب في بضعة سطور على الغلاف الأخير للمذكرات، يشكل اشارة للمتخصصين ولكنه ليس بذي فائدة للجمهور بشكل عام).

أقول هذا وأنا اتمنى لو أن ما نشر بعد موت نيرودا قد ضمّن كله في السفر الذي ظهر مؤخراً بعنوان **للولادة وُلدتُ**، أو أن يجري نشره في المستقبل بتدقيق أشد. وأخيراً، فإن هذه المؤلفات لا تضيف جديداً إلى اعمال الشاعر، وإذا كان بالامكان تبرير نشرها على أنها مساعدة للباحثين والدارسين في مهمتهم، فإن ما يبدو منطقياً هو المطالبة بتأمين تغطية لهذه الأعمال من جهاز علمي مطلع.

خاتمة

« لست أدري ما إذا كان تفاخراً القول ،
وأنا في هذه السن ، بأنني لا انفي استمراري
بكنز جميع الأشياء التي رأيتها أو احببتها ،
كل ما شعرت به ، وعشته ، وناضلت من اجله ،
لأتابع كتابة القصيدة الطويلة التي لم
انهها ، لأن الكلمة الأخيرة في اللحظة
الأخيرة من حياتي هي التي ستنهيها ».

شاعر التنوع في السياق الواحد ؛ والوفاء لمفهوم شعري تطوري ، ومستبدل الاستراتيجية مرة بعد مرة . هذا هو بابلو نيرودا الذي لم يعرف عصرنا مثيل له . لقد احتاجت ميوله التأريخية لقدراته الشعرية الهائلة كي لا تُسحق تحت ثقل خمسين سنة من العمل الشعري المتواصل ، وأكثر من خمسين كتاباً . إن من ينتقدون هذا الأكثار لا يفهمون بأنه ليس حجر الأساس في اعماله فحسب ، وإنما هو المبرر الضروري والكافي لظاهرته . فمثل هوميروس ، ومثل وايتمان ، ومثل داريو ، لم يكن بمقدور بابلو نيرودا أن يغني بصوت

خافت ولا أن يتوقف ليلتقط انفاسه . فعندما يجتمع لشاعرية ـ كما هو حاله ـ الاهتمام المتيقظ للمؤرخ والعزيمة التأسيسية للكلمة ، فإن صاحبها محكوم لا محال بتجاوز حدود المعقول ، ليصبح متعصباً ، وعاملاً لا يعرف الكلل ، تحت طائلة المغالاة والتكرار : إن أي تردد سيقتله ؛ وأي نسيان يكون كافياً لالغاء مشروع عمله المتجاوز للحدود، وهو لا يسعى إلاّ لأمر واحد : إعادة رسم الكون .

من السهل العثور على اسماك ميتة في هذا الاقيانوس الفسيح ؛ لكن الصعب هو العثور على مواز لحجم اصاباته ، على التماسك والنظافة التي جعل بها نيرودا من هدفه الشاق أمراً جديراً بالاحترام .

إذا كان الشعر ، من حيث المبدأ ، هو رهان خاسر مسبقاً ؛ وإذا كان كل شاعر عظيم يعرف ـ أو يحدس ـ بأن الواقع ليس شاعرياً ، وإن كلمته تخدش السر دائماً دون التوصل إلى الغائه ، فإن شكلاً من اشكال الثقة اليائسة لا بد أن يحرك هذا الانسان ليجعله يستهلك حياته في هذا الحصار . واظن أن هذه الثقة ، في حالة نيرودا ، هي حبه الانساني ، واستبعاده لكل ما هو ألوهي ؛ وتحديده الصائب لمستقبل الانسان المشرق ، وصعوده المستمر دون توقف عبر التاريخ ، بدءاً من القرد المتمايل وحتى الملاك الأحمر الذي كان ينتظره كنهاية لمصيره .

وهذه ، بلا شك ، هي نقطة الضعف الكبرى في عمله ـ من المعروف أن الاناجيل تتعارض وتختصم مع الذكاء ـ ، وهو سبب سقوطها في السذاجة ، والتبسيط ، والدوغمائية . ولكن لا بد من

البحث هنا كذلك عن قوام عظمتها : إذ لا يمكن بناء كتدرائية انطلاقاً من الارتياب ، والنبوة غير ممكنة دون ايمان ، كما لم يكن ممكناً فتح اميركا دون التعصب .

ثمة يقين مطلق تلوح لي رؤيته منتصباً في آلاف الصفحات التي خطها نيرودا : لقد كان قادراً على تقصد اعماله ، وتحقيقها بهذا التماسك الكبير ، لأنه آمن بالبشر واجبر نفسه على العمل ليترك لهم انجيلاً يتضمن هذه الثقة . وبالامكان مشاركته أو عدم مشاركته في رؤيته للواقع وللشعر ، ولكن نيرودا حقق المهمة العملاقة بمنهجة كلا الامرين لصالح الانسان .

نشرت مجلة « ترينفو » الاسبانية ، في عددها الصادر بتاريخ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، رواية شاهد عيان هو « بلينيو ابوليو ميندوثا » لتفاصيل الساعات والدقائق والثواني التي اعقبت مصرع الشاعر بابلو نيرودا . ونورد فيما يلي ترجمة لها ، لتكون بمثابة خاتمة لهذا الكتاب .

المترجم

في ذلك اليوم ، وعندما كنا نستعد لزيارته في المستشفى تلقينا الخبر : لقد مات نيرودا ! .

كان الجو بارداً ، وفي الهواء ما زال يطفو ضباب صباحي ، عندما وصلنا إلى بيته في سنتياغو في شارع ماركيز دي لا بلاتا . شارع صغير ، منسي . إنه الملجأ المناسب لشاعر ، حيث تملؤه أشجار داكنة اللون ، تعطي انطباعاً خريفياً في الربيع الجنوبي . وينتهي شارع ماركيز دي لا بلاتا بجدار رسمت عليه لوحة دعائية بألوان حيوية ، رسمها اناس من الوحدة الشعبية . إنها اللوحة الدعائية الوحيدة لليسار التي لم تمح في سنتياغو .

وهناك ، مقابل بيت الشاعر ، ثمة لافتة تقول : (**الشبيبة تحييك يا نيرودا**) .

ـ دون بابلو موجود ؟ .

كان السؤال سخيفاً ، ولكن المرأة التي فتحت الباب تلقته بصورة طبيعية . وقالت :

ـ إنه فوق .

بهو الدخول مغمور بالماء ، وكذلك الطابق الأول . ماء عكر يتدفق من مكان ما .

في الجانب الآخر من البهو ، وفي مستوى أكثر ارتفاعاً توجد حديقة رطبة تملؤها النفايات : أوراق ، كتب محروقة ، زجاج . كثير من الزجاج يصر تحت الاحذية . امرأتان تقلبان النفايات بحذر . التفتت احداهن إلينا ، وقالت ببساطة :

ـ لقد حطموها .

انحنينا لنلتقط صورة ملوثة بالطين ، إنها قديمة جداً . ثلاثة رجال وامرأة يلبسون زي الثلاثينات ، ويجلسون وسط الثلوج . يبدون سعداء أمام المصور .

قالت المرأة :
ـ هذا الرماد هو صور ورسائل دون بابلو .

قصاصات ورق مكتوبة بخط صغير منمق ، متآكلة الاطراف بفعل النار . تبدو متفرقة هنا وهناك .

قالت المرأة :
ـ لم ينتظروا حتى يموت . لقد حضروا منذ يومين .
ـ أين تضعونه ؟

ـ هناك .

أشارت إلى غرفة صغيرة كبيت الحمـائم ، ترتفـع في اعلى الحديقة ، ويُصعد إليها بسلم مائل .

عندما فتحنا الباب وجدنا انفسنا أمام نعش في غرفة مثلجة ، بلا اضواء ، حيث كان ستة أشخاص فقط .

ذاك النعش الرمادي مركون فوق قطعة موبيليا دون أبهة ، دون أكاليل ، دون شموع ، ومزين بزهرتين بيضاوين فقط ، وكأنهما مقطوفتان على عجل مما يعطي شعوراً بالوحدة .

تحت لوح من الزجاج كان وجه نيرودا المسجى فوق قطعة قماش من الساتان . إنه يبدو ناقصاً ، غير واقعي . لم يكن فيه بريق الحياة . ولكن قميصه الذي يلبسه كان مفتوحاً عند عنقه مما يوحي بالتفكير بأيام الآحاد الهادئة في ايسلا نغرا ، أو في صبيحات ربيعية في باريس ، المدينة التي أحبها نيرودا وفارقها إلى الأبد منذ عام .

زوجة نيرودا كانت تجلس إلى جانب النعش وحيدة . « ماتيلدي اوروتيا » التي عرفناها قبل سنتين في بيت غـارسيا مـاركيز في برشلونة ، في ذلك الصيف عندما لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق على حياة الشاعر أو على تشيلي . المرأة الشقراء التي كانت تتكلم بحماس بينما كانت زجاجات النبيذ الأبيض في الثلاجة تنتظر وصول نيرودا ، تجلس الآن ساكنة ودون أن تبكي على قدمي التابوت ، في غرفة مزروعة بالنفايات . البيت كله كان مفتشاً ومسلوباً .

عندما تمكنوا من قطع الماء المتدفق ، كان الطابق السفلي قد

فاض . ليس ثمة ضوء كهربائي ، النوافذ مهشمة ، ومصابيح الكهرباء والتحف محطمةأيضاً إلى نتف صغيرة ، والكتب محروقة ، واللوحات مختفية ، لوحات بدائية كان نيرودا قد جمعها طوال حياته .

في تلك الليلة ، وفي بيت غارق في الظلام ، في صمت المدينة الواجمة بسبب منع التجول ، ومع لفحات البرد الجبلية التي تتسلل من النوافذ المهشمة ، كان على الأرملة أن تسهر إلى جوار جثة الشاعر .

الآن في وضح النهار ، لا تزال المدينة تعيش هدوءاً متوتراً . سيارات مصفحة ممتلئة بالجنود تتنقل ببطء في الشوارع . وبسبب هذا الوضع تجرأ على الحضور عدد قليل فقط من اصدقاء نيرودا ومعظمهم من مناضلي الوحدة الشعبية .

كانت هناك لاورا ، شقيقته ، وبعض الاقارب وهم يتكلمون بصوت خافت في احد الاركان .

كان نور الصباح قد ملأ الكون عندما بدأ الصحفيون بالوصول مجهزين بآلات تصوير سينمائية ، كما حضرت بعض الشخصيات الأخرى : رادوميرو توميك ، الزعيم الديمقراطي ـ المسيحي ، وسفير السويد . سفارة فرنسا بعثت بأكليل عليه بطاقة تعزية تقول : « تؤلمنا تشيلي » .

ظهر احدهم وهو يحمل علماً تشيلياً ووضعه فوق النعش .

في تلك اللحظة نهضت ارملة نيرودا عن الكرسي حيث كانت طوال الصباح وخرجت إلى الحديقة. بحثت عن ركن منعزل ، ثم اسندت رأسها على جذع صفصافة ، وبكت بصمت ، بعيداً عن آلات التصوير .

التقينا في الحديقة بكاتب صديق ، طويل القامة ، ذي طبع مرح رغم شعره الأبيض . وكلمته ماتيلدي اورونيا طالبة منه أن ينهي خطوات الدفن . كان يبحث عن سيارة فعرضنا عليه أن ننقله بسيارتنا الصغيرة التي تركناها أمام الباب .

بينما كنا نتقدم نحو وسط المدينة في شوارع رمادية يملؤها البرد ، كان يقص علينا كيف فند فكرة نقل جثة نيرودا إلى المكسيك (الفكرة انطلقت من بعض الاصدقاء هذا الصباح ، وحسب رأيهم ، فهذه طريقة للتعبير عن معارضته ، ورفضه للوضع الحالي . ولكن ماتيلدي لم توافق فمن الممكن أن يسيء الشعب التشيلي فهم هذا) .

فتح يده وأرانا مفتاحاً .

ـ إن هذا من أجل ضريح بابلو .

الضريح الذي سيدفن فيه جسد الشاعر ملك لاقرباء أحد المشرفين على كرة القدم في تشيلي : كارلوس ديتبوران ـ مدفن مؤقت ، وفيما بعد سينقل رفاته إلى ايسلا نغرا احتراماً لمشيئة نيرودا .

مقابل مؤسسة الدفن ثمة امرأة تمحو بالماء والصابون جدارية من

رسوم الوحدة الشعبية ، إنها تعمل بنشاط ، وتدلك الجدار مرة بعد أخرى . ولكن اللوحة المتمردة ترفض أن تختفي .

ملأ الموظف الذي جاء لتسجيل الوفاة الاستمارات بتدقيق بيروقراطي :

ـ اسم الميت ؟
ـ بابلو نيرودا .
ـ اسم الوالدين ؟
ـ خوسيه دل كارمن رييس وروسا باسو ألتو .

. . . . الخ .

بعد فحص دقيق ، لم يكن كل شيء نظامياً . ينقص تقرير يبين سبب وفاة الشاعر ووثيقة الوفاة . (سنحصل عليها فيما بعد : توفي نيرودا بسبب سرطان البروستات ، وليس بسكتة قلبية كما قيل) .

وأخيراً ، السؤال النهائي : كم عربة تريدون ؟

صديقنا لم يكن يعرف . ولكن الموظف قال :

ـ من أجل دون بابلو يجب أن تكون اثنتان . اعتقد أنه ستكون اكاليل كثيرة .

فقال صديق نيرودا :

ـ في الظروف الطبيعية يجب أن تكون أكثر : سبع ، أو عشر عربات . لست ادري . ولكنني اعتقد أن عربة واحدة تكفي في

الظروف الراهنة .

رنة صوته كانت تحمل مرارة ضعيفة . فصديق نيرودا هذا لم يكن يعرف ما إذا كان عليه أن يختفي في تلك اللحظة أم لا ، وإذا كان سيعتقل أم لا . لقد تلقى في تلك الليلة بالهاتف نبأ وفاة الشاعر ، عندما كان يقوم في شقته بعمل رهيب . فقد كان يحرق مكتبته ، التي تغص بالكتب الماركسية ، خوفاً من العواقب . وعندما بزغ الفجر كانت الكتب قد احترقت .

ـ هل سيخرج أحد في الجنازة غداً ؟
ـ من الصعب معرفة ذلك في وضع كهذا .

كان هناك حشد أكثر من المتوقع . حوالي ثلاثمائة شخص بما فيهم الصحفيون والمصورون الاوروبيون .

عندما نقل النعش مع العلم التشيلي عبر الحديقة المملوءة بالماء إلى عربة الدفن القابعة أمام الباب ، كانت الشمس تبعث الدفء بصعوبة ، فما زال في الجو شيء ينفث رائحة ولون الشتاء الجنوبي . ولما أراد الموكب بدء مسيرته في جو تلك الأيام المشحونة بالرهبة والخوف ، دوت في الشارع صرخة مجهولة :

ـ أيها الرفيق بابلو نيرودا .

وردت بعض الاصوات :
ـ حاضر .

تكررت الصرخة بنفس الهتاف لمرتين . بعد ذلك قاطع الصوت

المجهول الاصوات الأخرى صارخا :

ـ الآن وإلى الأبد .

بدأ الموكب سيره من جديد بصمت وبطء شديدين .

المسافة بين بيت نيرودا والمقبرة العامة لم تكن بعيدة : كيلومترين بمجموعها . ولكن الجو الذي تعيشه المدينة ، حيث دوريات مكثفة من الجيش تجوب الشوارع ، جعل المسيرة بطيئة ومشحونة بالتوتر . بعض الناس وقفوا على الابواب والنوافذ ينظرون إلى النعش وهو يمر دون أن يقولوا كلمة .

أمام باب المقبرة المرتفع ذي القنطرة ، رفع النعش عن العربة ووضع فوق منصة متحركة على عجلات . والمجموعة البشرية غدت أكثر تراصاً بتقدمها في ممر المقبرة الضيق . وانطلقت فجأة من حول التابوت دندنات خافتة لأغنية ، بدت وكأنها طنين نحل . وفي مسمع الممر أصبح للاصوات رنة أكثر تصميماً ، أكثر ثباتاً . . إنهم ينشدون النشيد الاممي .

تُسمع في الخلف ، في الساحة الصغيرة التي تفضي إلى المقبرة ، صفارات السيارات العسكرية ، ويظهر جنود يقفزون من الشاحنات وهم يحملون بنادقهم الرشاشة . ولكن الحشد استمر بالغناء .

واحسسنا بصفير هواء جليدي بين أشجار السرو المغطاة بالغبار ، بينما كان الموكب يتقدم .

وأمام ضريح عائلة ديتبوران ران صمت ، بدد قليلاً ازيز آلات

التصوير السينمائية . وبقي نفس الصمت سائداً عندما ألقى ثلاثة كتاب وامرأة خطبهم بلا مكبر للصوت .

ووقف طالب شاحب يحمل ورقة منتزعة من دفتر مدرسي ، ترتجف بين يديه ، وقرأ قصيدة الوداع لنيرودا ، لقد كتب القصيدة في ذلك الصباح ، وكانت قصيدة رائعة .

عند ادخال التابوت في موضعه وسط وابل من الأزهار انفجرت الصرخة لنيرودا من جديد .

وفجأة ، صاح آخر بشكل غير متوقع :

ـ أيها الرفيق سلفادور الليندي .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يصرخ فيها باسم الليندي في سنتياغو بعد موته .

واجابت جوقة واسعة :

ـ حاضر .

بعد ذلك كانت التحية لفيكتور خارا ، مغني تشيلي الذي أعدم رمياً بالرصاص قبل اسبوع في الاستاد الوطني . اجهشت بالبكاء زوجته الانكليزية ، الطويلة الشقراء ، التي كانت تقف قرب نعش نيرودا . فقبل أربعة أيام ، وهي برفقة السفير البريطاني ، تعرفت على جثة زوجها وسط مائتين من القتلى .

وفجأة ، تحولت جنازة نيرودا إلى تظاهرة سياسية « عمل المعارضة الشعبي الأول » هكذا كان عنوان الصحيفة اليومية الفرنسية

« ليموند ». المشهد على كل حال كان قصيراً جداً . لم تكد تغلق الكوة التي تحفظ رفات نيرودا حتى أطبق من جديد صمت من التوتر والحيرة . يستمر سماع صفير السيارات العسكرية في الخارج . بدأ الحشد بالتفرق بسرعة في كل الانحاء .

عندما خرجنا ، وعلى بعد امتار قليلة من المدخل رأينا مجموعة من النساء يلبسن السواد ، ويبكين . لا يبكين نيرودا . إنهن زوجات قادة نقابيين قتلوا رمياً بالرصاص ، وقد انتهين من التعرف على جثث ازواجهن . يحملن في ايديهن وثائق دفن معطاة من السلطات العسكرية . ويبكين على بعد امتار قليلة من شاحنات الجيش .

الفهرست

سلسلة أعلام الفكر العالمي

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر